توماش ماستناك

أوروبا و تدمير الآخر

الهنود الحمر و الأتراك و البوسنويون

ترجمة:
بشير السباعى

مصر العربية للنشر و التوزيع
١٩ شارع إسلام- حمامات القبة
القاهرة

أوروبا و تدمير الآخر

تأليف: توماش ماستناك

ترجمة: بشير السباعى

الإصدار الأول: ١٩٩٥

الناشر: مصر العربية للنشر و التوزيع

١٩ ش إسلام - حمامات القبة - مصر

ت - فاكس: ٢٥٦٢٢٦٨

الترقيم الدولى: I. S.B.N.977- 5471- 08- 7

رقم الإيداع: ٧٩٧٦ / ٩٥

"مـن يعتـبرون أنفســهم بشــراً أرقــى ، لا يمكنهم الحفاظ على تماسك فهمهم للأمور إلا بــالحط مــن شــأن أولئــك الذيــن لا يعتبرونهم من جنسـهم " .

ت. ماستناك

المحتويات

إلى القارئ

يتضمن هذا الكراس دراستين للباحث السلوفيني توماش ماستناك ، الذى سبق أن ترجمنا له بحثه المهم حول " الإسلام و خلق الهوية الأوربية ".

و يوضح ماستناك فى الدراسة الأولى كيف أن المواقف الأوربية تجاه " الأتراك " كانت ماثلة فى قلب ردهم على مسألة الهنود الحمر غداة اكتشاف العالم الجديد.

أما الدراسة الثانية ، فهى توضح أن المعاداة الأوربية للقومية هي ، بحصر المعنى ، معاداة للسيادة القومية ، و أن هدفها المحدد فى البلقان هو تدمير الدولة البوسنوية من خلال دعم الفاشية الصربية ، بكل ما تمثله من عنصرية و شوفينية.

و بهذا المعنى ، فإن هذه الدراسة لا تصدر عن أيديولوجية قومية ، فالدفاع عن حق السيادة القومية ليس مماثلا لتأييد الأيديولوجية القومية ، كما يعرف الجميع.

و من جهة أخرى ، توضح هذه الدراسة ، أن ما تهدف المعاداة الأوربية للقومية و الفاشية الصربية الى تدميره هو دولة مجتمع علمانى الى حد كبير ، كانت مدنه مراكز للتعددية الثقافية و للتسامح الثقافى.

و كل ذلك يعنى أنه لا يمكن توظيف عمل ماستناك لحساب الأيديولوجية القومية أو الأيديولوجية الأصولية الإسلامية ، فالأولى ، شأنها فى ذلك شأن الأخيرة ، تعلي من شأن الذات على حساب الآخر، و الأخيرة تحارب

علمنة الدولة و المجتمع ، بما يمهدالسبيل أمام قتـل التعدديـة الثقافيـة و التسـامح الثقافى . و فى جميع الأحوال ، تؤدي الأولى و الأخيرة الى سياسات لا تختلـف كثيراً عن سياسات حكام أوروبا و الفاشية الصربية فى البلقان.

و قد أوردنا فى ختام هذا الكـراس ، علـى شـكل ملحـق ، فقـرات مـن مقال لليون تروتسكى حول المسألة البلقانية كتب فـى صيـف عـام ١٩١٠ يحـدد فيه هدف توحيد شعوب البلقان نفسها بنفسها من خلال الإطاحة بحكامها و نزع تحكم الدول الكبرى فى مصائرها.

بشير السباعي

التخيلات فى الفكر السياسي :

الهنود الحمر و الأتراك بين لاس كاساس و

سيبولبيدا

يبدو أن التخيلات تساعد الفكر السياسي على العمل . و فى هذا البحث ، سوف أحاول التدليل على صحة هذا الزعم بتقديم تفسير جديد لحدث شهير (نسبيا) فى تاريخ الفكر السياسي **الأوربي** : المجادلة بين بارتولومي دى لاس كاساس و خوان خينيس دى سيبولبيدا حول حقوق الشعوب الأصلية فى أمريكا المكتشفة حديثا . و سوف أذهب الى أن ما يكمن وراء مواقفهما المختلفة هو مفهوم مشترك عن ماهية"التركى" و هو مفهوم صاغ ردهما على مسألة الهنود . و بينما حاول لاس كاساس إثبات أن الهنود ليسوا "أتراكا" و أنه يتعين معاملتهم معاملة مختلفة ، أي معاملة سلمية ، فقد و سّع سيبولبيدا الموقف الأوربي تجاه الأتراك ليشمل معاملة الهنود .

و الحال أن القول بأن **صورة التركى** قد حكمت المجادلة حول الهنود قد يبدو مثيرا للاستغراب . على أن صورة "التركى" انما تكمن فى صميم خلق الهوية الأوربية .إن الإطار الذهنى الذى حدد من خلاله الأوربيون موقفهم من عالم خارجى جديد –الى حد بعيد- قد صاغه تفاعل مسيحية العصر الوسيط الغربية مع عالم الاسلام . لكننى لا أناقش هنا خلق الهوية الأوربية ، فما يهمنى هنا بالأحرى هو ان صلة حميمة قد وجدت ، فى الخيال الأوربي ، بين العالمين الخارجيين –العالم المسلم و ما أصبح يسمى **بالعالم الجديد**- و ، بالإضافة الى ذلك ، أن المواقف الأوربية تجاه "**الأتراك**"كانت ماثلة فى قلب ردهم على مسألة الهنود. و الحال أن مناقشات القرن العشرين للمجادلة حول حقوق الهنود قد مالت الى تجاهل هذه الصلة .

و بمجرد أن نـدرك الـى أيـة درجـة حددت صـورة "الـتركى" مجادلـة القرن السادس عشر حول الهنود ، يصبح من الأوضح الى أي حد تظل قصتنـا عن اكتشاف العالم الجديد ، و التى تتجاهل فى الواقع تلك الصورة المحوريـة ، الخياليـة عن الـتركي ، غارقـة فـى الخيـال . بـل إن لاس كاسـاس و سـيبولبيدا نفسيهما غالبا ما يتحـولان ، فـى روايـات المؤرخيـن عـن المجـادلات الأوربيـة حول العالم الجديد ، الى شخصيتين خياليتين . فنحـن لدينـا خيـال أن مجادلتهمـا كانت عن حقوق الهنود ؛ و لدينا خيال اكتشاف أمريكا باعتباره نقطة تحول فـى التاريخ الأوربي و لدينا ، مرة أخرى ، خيال أنه لم يكن هناك تركى متَخيّل فـى القصة . و هذا الخيال الغائب/الحاضر يتقاسمه مؤرخو اليوم مع مجادلي القـرن السادس عشر الذين يدرسونهم – و يتقاسـمه عالمنـا الحديث المتـأخر مـع العـالم الحديث المتقدم .

و من أجل الاقتراب مـن مسـألة الـى أي حـد يعد عالمنـا المـاضى و الحاضر من صنع الخيال ، و من ثم الاقـتراب مـن موضـوع هذا البحـث ، قـد يكون من المفيد أن نرى كيف جرى تمثيل نظرة الأوروبيين للعالم الخـارجي فى الخيال القصصي . و لنأخذ كنقطة انطلاق دانييل ديفو ، و هو أستاذ عظيـم فـى تقديم تعبير أولي عن تهوسات عصره . و كان السفر الـى الأراضـى المعروفـة والمجهولة هو أحد هذه التهوسات .فبعد قرن و نصف من لقـاء لاس كاسـاس و سبيولبيدا ، نشر ديفو روايته " **رحلة جديدة حول العالم** " . و ربما تعـد الروايـة ، بشكل لا يدعو الى الاستغراب ، ملحمة من ملاحم التجـارة . فتحت تصـرف أسطول ديفو التجارى الصغير ، الذى يتألف طاقمه من الأمم الأوربية الكـبرى، ما لا يقل عن الأرض برمتها . و العاصفـة وحدهـا هـى التـى قـد تمنـع هـؤلاء التجارمن الحصول على الثروة ، لا الشعوب التى تحيا على الشطآن ، الشـعوب

" الوحشية ، العارية ، السوداء ، البربرية ، عديمة المرونة تماما ، وغير الحساسة لأية حالة من حالات الحياة أفضل من حالة حياتها ".

و الأكثر بلاغة و إيحاءً هو وصف ديفو للقاء التجار المبحرين مع السيلانيين ،"وجدنا الناس هنا مستعدين لامدادنا بالمؤن ؛ لكنهم من جهة اخرى جد متعنتين ، إذ يفرضون علينا أسعارهم لكل شيء ، [....] بحيث أننا غالبا ماكُنّا مدفوعين الى معاملتهم معاملة جد فظة . على أنني أصدرت أوامر صارمة بعدم إيذائهم أيا كانت المناسبة ، على الأقل الى أن نكون قد ملأنا كل براميل مياهنا و أخذنا على متون مراكبنا كل ما يسعنا الحصول عليه من مؤن طازجة و جديدة " . على أن أهل البلد كانوا استفزازيين بما يفوق كل قدرة على الصبر على استفزازهم ، و قد انهار الصلح فى نهاية الأمر . و عندما نشل سيلانى بعض الدجاجات التى كانت قد بيعت بالفعل و فر هاربا ، فإن اثنين من بحارة ديفو" قد تملكهما الغضب من مثل هذه المعاملة ، بحيث أنهما شهرا سلاحيهما ، لأن كلا منهما كان معه سلاح ناري ، و أطلقا الرصاص عليه فورا ، ووجها رصاصاتهما اليه توجيها محكما تماما ، بحيث أنه مع أن الرجل كان يعدو كالريح ، إلا أن الطلقات اخترقت رأسه ، و سقط ميتا على الأرض " . و بما أن أبناء بلده عجزوا عن إبداء تفهم لما حدث ، فقد جرى قتل المزيد منهم . و يصعب على النظرية السياسية أن تصور المشكلة تصويرا أفضل مما فعلته هذه الرواية التى كتبها أيديولوجي عظيم للنظام العالمي الجديد . و الحال أن أولئك الذين كتبوا تخيلات نظرية قد عرضوا أفكارا مماثلة لتلك التى نجدها فى **"الرحلة الجديدة"** لديفو .

و فى منتصف الطريق بين ديفو ، من ناحية ، و لاس كاساس و سبيولبيدا ، من الناحية الأخرى ، نشر ايميريك كروسيه كتابه **"كينايوس**

الجديد"، و هو عمل يحتل مكانة بارزة فى **شريعة** المسالمة الأوروبية ، و عاد على كاتبه بالإشادة به كواحد من رواد الليبرالية و المبشرين الأوائل بها . و فى هذا البحث ، يسافر الناس و يتواصلون فيما بينهم و يتاجرون بحرية عبر الحدود . إن الأرض، فى تصور كروسيه عن التجارة الحرة ، إنما تصبح أسرة كبيرة واحدة تجمع بينها مصالح مشتركة . على أن نزعته الكوزموبوليتية (الكونية) التجارية تصطدم بـ "المتوحشين" – و هم بشر يرى أنهم "لا يستخدمون عقولهم" . و يخشى الكاتب من أن وجودهم نفسه قد يعرقل مسيرة التجارة و الرفاهية . و لو واصلوا العيش بأسلوبهم الوحشي ، فإنهم سوف يستفزون الشعوب المتحضرة التى سوف تتجه ، بموجب اتفاق عام ، الى "مهاجمتهم و قتلهم قتل الحيوانات البائسة فى أوكارها" . و يعلن كروسيه "إن الحرب ضدهم سوف تكون دائما شيئا مستحبا إذا لم يتسن ردهم الى صوابهم". إنهم يمثلون مجرد هدف للحرب .

و الحال أن المتجادلين الإسبان فى القرن السادس عشر لم يكونوا يتكلمون بلغة تجارية ، لكن كثيرين منهم سوف يسمون السكان الأصليين فى الأراضى الواقعة وراء البحر بالبهائم البرية . و لم تكن هذه كلمات إساءة ، بل كانت مفاهيم و تصورات . و ما كان مشتركا بينهم و بين كروسيه ، الأيديولوجي الأول لحرية التجارة الذى لم يكن قد استشعر بعد الحاجة الى إخفاء الوجه الحربي لـ "التجارة المسالمة" ، هو اهتمامهم بمسألة الحرب العادلة . و قد لعبت مسألة الحرب العادلة دورا رئيسيا فى البحث عن إجابة عن مسألة كيفية التعامل مع الشعوب التى واجهها الأوربيون فى "عصر الاكتشاف"، و كانت بارزة فى تفكير كل من لاس كاساس وسيبولبيدا.

و فيما يلي ، سوف أعرض أولا بإيجاز المجادلة بين لاس كاساس و سبيولبيدا ، مركزا على ما أعتبره قوة دفع مناقشاتهما . أما فى القسم الذى يلي ذلك ، فسوف أحاول بيان أن آراء هذين المتجادلين حول الهنود قد صاغها تراث الفكر الذى عبرت المسيحية اللاتينية من خلاله عن موقفها تجاه المسلمين

١- النزاع بين لاس كاساس و سيبولبيدا

يمكن النظر الى النزاع بين لاس كاساس و سيبولبيدا على أنه تتويج للمناقشة التى فجرها فى إسبانيا اكتشاف أمريكا . و قد قدم المتجادلان آراءهما الى **مجمع** من المثقفين دعا الامبراطور شارل الخامس الى عقده فى بايّا دوليد ، فى عامي ١٥٥٠-١٥٥١ . و يقال إن المناقشة تعد حدثا فريدا فى تاريخ أوروبا لأنه"آنذاك ، لأول مرة ، و لآخر مرة دون شك ، نظمت أمة مستعمرة تحقيقا رسميا حول عدالة الأساليب المستخدمة لتوسيع امبراطوريتها " . و قد جرت المقارنة بين هذا النهج و الأساليب التى استخدمتها أمم أوربية أخرى لم يزعجها ، فى سياستها الاستعمارية ، صوت الضمير ("إن شخصا مثل لاس كاساس لم يظهر فى المستعمرات الفرنسية أو الإنجليزية فى أمريكا") ، و قد جرى تفسير المناقشة التى شهدتها بايّا دوليد ضمن إطار أوسع هو إطار "النضال الإسباني من أجل العدل فى فتح أمريكا" .

و كان على **مجمع** بايّا دوليد ، و على المتجادلين بشكل خاص ، " بحث و تحديد الأسلوب و القوانين التى يمكن من خلالها نشر ديننا الكاثوليكي المقدس و تدشينه فى العالم الجديد [و بحث] الشكل الذى يجوز من خلاله إبقاء تلك الشعوب خاضعة لصاحب الجلالة الإمبراطور دون إساءة الى ضميره الملكي ، وفقا لمرسوم البابا الكسندر " . و قد جرى تشخيص المجادلة أمام مجمع بايّا دوليد بأنها مجادلة حول حقوق الهنود ، على أنها كانت بالقدر نفسه على الأقل مجادلة حول حق الامبراطور أن ينام مرتاح الضمير . و بهذا المعنى ، فقد كانت مجادلة حول ما يمكن للمسيحيين عمله مع الكفار و الوثنيين و لهم مع الشعور فى الوقت نفسه بأنهم عادلون و أهل فضيلة : حوار داخلي

للأوروبيين مع أنفسهم " فى القرن الأخير للإيمان و التفكير المنطقي " . على أن المجادلة لم تمس مسائل الضمير وحدها ، بل مست أيضا مسائل الإيمان و الدين . و كانت أوروبا المسيحية منقسمة الى معسكرين دينيين متعارضين تعارضا مريرا ، و كان على "انشغال" المجادلة الإسبانية "الطاغي" بحقوق الهنود أن يدحض النظرية اللوثرية حول **السلطة** و السيادة . و بهذا المعنى ، الآخر ، فإن الهنود كانوا مجرد بيادق فى مناقشة النزاع الطائفي الأوروبي .

و الحال أن السؤال المطروح على لاس كاساس و سيبولبيدا قد صيغ بوضوح و بدقة ؛ و لم يشك أي منهما فى الإطار الذى كان عليهما أن يتناقشا ضمنه . على أن حلولهما المقترحة للمشكلة -إذا ما بقينا ضمن التفسير السائد للمجادلة- كانت متعارضة على طول الخط. إن لاس كاساس ، الذى مر بتجربة تحول مذهبي فى جزر الهند الغربية و انتمى الى طائفة الدومينيكان ، قد كسب سمعة مدافع عظيم عن الهنود لأنه كان يعارض بحزم استخدام العنف ضد الشعوب الأصلية فى العالم المكتشف حديثا . و قد شجب بغضب فظائع **الفاتحين** ووحشية نظام **السخرة** و اعتبر الهنود كائنات متحضرة و عاقلة ؛ و ذهب الى أن النشر السلمي و غير العنيف للمسيحية وحده هو العادل و الجائز . أما سيبولبيدا ، و هو علاّمة بارز فى زمانه و مترجم لأرسطو ، فمن المفهوم أنه قد طبق نظرية الفيلسوف (أرسطو) عن **العبودية** الطبيعية على الهنود . و يقال إنه ذهب الى أنه بما أن الهنود مجردون من العقل و من الحضارة ، فإن من العدل أن يحكمهم أولئك الذين يعدون بحكم الطبيعة متفوقين عليهم ، أي الإسبان . و يقال إنه قد ذهب أيضا الى أنه لو رفض الهنود الخضوع للحكم الإسباني وواصلوا العيش بأساليبهم الوحشية ، فسوف يكون من العدل خوض الحرب ضدهم و إخضاعهم بالقوة .

و الحال أن مثل هذا التفسير قد صاغ صورة سيبولبيدا باعتباره الرجل الذى "تقدم لإسعاد المسئولين و **الفاتحين** الإسبان بإعلان عدالة الفتح"؛ بينما يصبح لاس كاساس " رسولا منقذ الحمية يتحدث بلسان أولئك الهنود المكتشفين حديثا و يدافع عنهم بكل ما يملك من أسلحة " . لكن مثل هذا التفسير التبسيطي قد خلق أيضا مشكلات : إن طابعه الأخلاقي بشكل مهيمن غالبا ما حرف المناقشة بعيدا عن تحليل المواقف النظرية للشخصيتين الرئيسيتين . فمن ناحية ، نجد ان سمعة لاس كاساس التى يستحقها كمناضل فى جماعة رصد حقوق الانسان قبل أزمنة من ظهور مثل هذه الجماعة قد طمس البعد النظرى لعمله ؛ و كان لا بد من التشديد على أنه يجب اعتباره أيضا "مفكرا سياسيا" . أما سيبولبيدا ، من الناحية الأخرى ، فقد كان علّامة شهيرا ، لكنه علّامة منخرط فى جدل سياسي . و فى حين أن الانخراط فى **الحياة العامة** شيء متوقع من انساني صالح ، فربما كان انخراطه فى ما أصبح الجانب الخطأ هو الذى ألقى ظلالا معتمة ليس فقط على شخصه و إنما أيضا على ما قاله بالفعل . و لذا، باختصار ، يتعين علينا النظر عن قرب أكثر الى حجج كل من لاس كاساس و سيبولبيدا .

إذا ما عرفنا أولا موقف سيبولبيدا النظرى بالسلب ، فإنه لم يكن ايرازموسيا . و مناظراته مع ايرازموس –والتى أتاحت الفرصة لتصوير سيبولبيدا على أنه مدافع عن "المدرسية و الدياليكتيك و عن كل ما نبذه الذكاء الايرازموسي باعتباره مجرد نزاع على **الألفاظ**"– لا تهمنا هنا بشكل مباشر . فما يهمنا هو التصوير المبتذل الرائج عن الايرازموسية و الذى يذهب الى أنها ترفض الحرب رفضا لا يعرف مساومة . ففى هذا السياق يمكن اعتبار لاس كاساس "ايرازموسيا إسبانيا حقيقيا" ، و يمكن اعتبار حجاج سيبولبيدا فى رسالته

"**عن توافق المهنة العسكرية مع الدين المسيحي : حوار كتبه ديموكراتيس**"– و التى تذهب الى أن المهنة العسكرية و المسيحية ليستا متعارضتين و الى أن من المسموح به للمسيحيين خوض الحرب– على أنه يتعارض مع نزعة السلم الايرازموسية . و لم يرد الايرازموسيون على تحدي سيبولبيدا ، و الحجة نفسها المطروحة فى رسالة "**ديموكراتيس**" كانت بحلول ذلك الوقت ذات تاريخ طويل فى العقيدة المسيحية ، على أن سيبولبيدا قد شعر مع ذلك بأن عليه أن يدافع عن موقفه . و ذلك الدفاع ، "**ديموكراتيس الثانى**"، (الذى تلته رسالة "**دفاع**") ينتمي بالفعل الى مجادلة بايّا دوليد .

و كانت آراء سيبولبيدا حول الحرب ذات صلة واضحة بـ"المسألة الهندية" . ووصف هذه الآراء ببساطة على أنها محاولة لإضفاء الشرعية على أخلاق المجتمع الحربى ، أو على الروح العسكرية التى كانت تتراجع آنذاك أمام التجارة ؛ أو على أنها تبرير لأحد "جوانب الحياة الإسبانية" (حيث السلاح فى الأيدى النبيلة) ، إنما يغفل هذه الصلة . و النهج الواعد أكثر بكثير هو النظر الى سيبولبيدا فى إطار النزعة الانسانية الكلاسيكية .

لقد كان الشاغل المحورى لدى سيبولبيدا هو **المشاركة الإيجابية فى الحياة العامة**.وقدأدرج"الفضائل الأخلاقية بالكامل ضمن النظام الاجتماعى والسياسي الذى لا ينفصل عن مدى مدينةٍ–دولةٍ " و " من المحتمل أن السمة الوحيدة لفكر سيبولبيدا " هى الأهمية التى ينسبها الى القوانين ،"العمود الفقرى الأصدق لأي مجتمع" . و قد فهم القانون الطبيعى ، الذى يشكله **العقل السليم** (القويم) ، قبول الواجب و املاءات الفضيلة ، على أنه القانون المشترك (العام) لكل البشر . إن نور العقل السليم (القويم) يمكّن الانسان الصالح من تمييز ما هو

خيّر و عادل مما هو شرير و غير عادل . و قد رأى سيبولبيدا أن هذا ينطبق ليس فقط على المسيحي بل على اي انسان **لم** يفسد **الطبيعة السليمة (القويمة)** بسلوك منحرف ، فاسد . وهكذا زعم سيبولبيدا أنه"لكي يظل حكم جمهورية سليما فإنه يجب أن يحرص على ألاّ يستبعد من وسطه أي شكل من أشكال القانون الطبيعي . فالتصرف خلافا لذلك سوف يكون بربريا و منافيا لتلك الطبيعة الانسانية التى تقدّر تقديرا ساميا بسبب **ملكاتها التفكيرية** " .

لقد كانت هذه المبادئ هى **الأساس** الذى أصدر سيبولبيدا حكمه على **الحياة العامة** للهنود استنادا إليه . إذ وجد أن حياة السكان **الأصلين الأمريكيين**" وحشية " ، " شبيهة بحياة البهائم " ؛ و شجب ، كـ " جرائم يلعنها القانون الطبيعي "، تقديم القرابين البشرية تقدماتهم اللعينة والمذهلة لقرابين بشرية الى الشياطين و أكل لحم البشر ، و " عادة دفن أرامل الرجال البارزين أحياء مع أزواجهن الميتين " . و لأن الهنود انتهكوا قانون الطبيعة ، فإن الإنسانى الإسبانى قد شك فى سلامة عقولهم ، على أن ما أصدر سيبولبيدا الحكم عليه هو مؤسسات ؛ فما أصدر عليه حكمه هو ما يمكن لنا أن نسميه بأعراف الشئون العامة الهندية . و "سعيا الى تبديد **الشكوك** المحتملة فى أنه ربما يكون متأثرا باعتبارات دينية ، اجتهد سيبولبيدا فى التشديد على أنه يحكم على **الحياة العامة** للهنود و لا يصدر حكما على عيوبهم الروحية . ولذا فإنه يشير الى ان وثنية السكان الأصليين ليست هىالسبب فى وجوب أن يحكمهم الإسبان ". فمبرر المطالبة الإسبانية **بحكم** أمريكا هو افتقار الهنود الى التمدن ، انعدام تمدنهم . و شبه تمدن الهنود انما يعنى انهم "فى حالة تخلف يمكن تحسينها " ، أنهم قابلون للوصول الى الكمال ،

وَ الحال أن النزعة الإسبانية قد ألهمت -أو حاولت إلهام- الإسبان الحرص على إصلاح حال أولئك البرابرة .

و لأن سيبولبيدا اعتبر العقل الشرط الذى لا تمدن دونه -بينما لا يعد امتلاك الحقيقة المسيحية " شرطا مسبقا لانبثاق مؤسسات سياسية سليمة ")- فإن السكان الأصليين الأمريكيين يجب الأخذ بيدهم ، تحت الرعاية الأبوية الإسبانية ، و إخراجهم من حالتهم الخاطئة الى الوجود المتمدن القائم على العقل و على الخضوع للقانون الطبيعي . و البرنامج الامبراطورى الإنسانى النزعة هو التربية المدنية . إن **الشعوب البربرية و اللاانسانية** يجب إخضاعها، لما فيه صالحها الخاص ، لحكم أمم أو أمراء أكثر انسانية و أكثر تمتعا بالفضيلة ، حتى يتسنى تربيتها ، من خلال مثال الأخيرين الذين يتميزون بالفضيلة و بالالتزام بالقوانين و بالتحلى بالحكمة ، بما يساعدها على تبني حياة أكثر انسانية و عادات أقل خشونة و على رعاية الفضيلة .

و إذا ما رفض الهنود -الذين تتطلب حالتهم الطبيعية أن يطيعوا أولئك الذين يجسدون الكمال المدني- كرم و شهامة الملوك الإسبان الذين لا يريدون معاقبتهم على خطاياهم بل يرغبون في إصلاحهم و خلاصهم و صلاح شئونهم العامة ، فمن الممكن خوض الحرب بعدالة ضدهم ، " عن طريق حرب عادلة نسعى أيضا إلى فرض الحكم على أولئك الذين نحرص على صلاح حالهم بحيث يتسنى إخضاع البرابرة -بمجرد تجريدهم من حريتهم في ارتكاب الخطيئة و استئصال عاداتهم المتعارضة مع القانون الطبيعي و حثهم على السير في اتجاه أسلوب حياة انساني أكثر من خلال شكل مدني للحكم- إخضاعا معقولا ضمن حدود واجباتهم".

أما لاس كاساس -إذا لم نغفل أنه " تحت نار و كبريت غضبه العارم تكمن بنية تفكير جرى التفكير في صوغها بإحكام تستند على المفاهيم السياسية الأكثر أساسية لأوروبا العصر الحديث"- فقد اختلف عن سيبولبيدا في أنه قد أسس حججه المدافعة عن الهنود ضد عنف الفتح على التراث القانوني الإكليريكي إلى حد بعيد . لقد" نظم جيشا من حقوقيي العصر الوسيط للزحف دفاعا عن قضيته " ، لكنه لم يدافع عن الهنود ضد الحكم الإسباني المفروض عليهم . و شأنه في ذلك شأن سيبولبيدا ، فإنه لم يشك في حق وجود الإسبان الإمبراطوري في أمريكا . و عندما تطرق لاس كاساس إلى النظر في عدالة الحق الإسباني في حكم الأراضي الأمريكية ، فإن المرجع المحوري الذي رجع اليه هو مرسوم البابا ألكسندر الذي منح إسبانيا حق حكم أمريكا . فبالنسبة له ، يوجد المبرر -السبب الأسمى و الأساسي لمشروع إسبانيا الإمبراطوري في أمريكا في المراسيم البابوية . و هو يرى " أن ملوك كاستيل وليون يتمتعون بالحق الأكثر عدالة في السيادة الإمبراطورية والشاملة على مجمل عالم ما يسمى بالمحيط الهندي ، و هم أمراء ذوو سيادة و مكانة أسمى ، و سادة شاملون و أباطرة بشكل عادل ومشروع على الملوك و السادة الطبيعيين لذلك العالم [عالم ما يسمى بالمحيط الهندي . -المترجم] ، و ذلك بحكم مرجعية و منحة و هبة [...الكرسي الرسولي [...] و هذا، و لا شيء غيره ، هو الأساس الحقوقي و الأساسي الذي يستند إليه هذا الحق و يقوم عليه برمته " .

و في رأي لاس كاساس ، فإن التاج الإسباني لا يملك أساسا حقوقيا للمطالبة بحقوق ملكية أشياء في أمريكا ، لكنه له الحق في الحكم و السيادة . و في قبوله و تبريره لسيادة إسبانيا على الهنود ، حاول لاس كاساس أن يجعل الحكم الإسباني صالحا و انسانيا قدر الإمكان . لقد نادى بإمبريالية ذات وجه

انساني . و آخذا مأخذ الجد الفكرة النبيلة للمملكة الإسبانية (على نحو ما تم التعبير عنها ، مثلا في وصية الملكة ايسابيلا وفي البيانات الملكية) ، كان يود تطهير الفتح من الشرور التى اقتُرفت ، في اعتقاده ، ضد إرادة الملوك وشرعهم . و كان على ثقة من أن الهدف الرئيسي للوجود الإسباني في أمريكا –نشر الدين الحق ، "نشر و غرس الدين المقدس"– يمكن تحقيقه ، و لا يمكن تحقيقه إلا ، بالسبل السلمية . كما كان على ثقة من أن السيادة الإمبراطورية الإسبانية على الأراضي المكتشفة حديثا لا تسيء إلى حقوق و حرية الهنود و أمرائهم ، "الذين يمكنهم حكم أنفسهم طالما امتثلوا لما عليهم من واجبات و لم يعرقلوا عمل المبشرين و تحول الهنود إلى اعتناق الدين المسيحي أو ممارستهم لشعائره ". و من شأن اعتراف الهنود بالملك الإسباني كسيد عام لهم أن يمكنهم من " استئصال العيوب التى تشكو منها مجتمعاتهم ، بحيث يمكنهم التمتع بحرية أفضل " .

و هكذا فإن استئصال الشر لا ينطبق على الفاتحين وحدهم ، و إنما ينطبق أيضا على المفتوحين . و الحال أن نظرة لاس كاساس للمفتوحين – المصاغة في الإعلان المحترم الذي يعلن أن "الجنس البشري واحد ، و أن جميع البشر سواسية فيما يتعلق بخَلْقِهم و بجميع الأشياء الطبيعية "– إنما تتمثل في أن "الشعوب المتوحشة في الأرض يمكن مقارنتها بالتربة غير المفلوحة و التى تلد بيسر أعشابا ضارة و أشواكا لا فائدة منها ، و إن كانت تحتوي في داخلها على فضيلة طبيعية عظيمة بحيث يمكن عن طريق العمل و الفلاحة جعلها تغل ثمارا لا عيب فيها و نافعة " .

و يجري النظر عادة الى نزعة لاس كاساس الإمبريالية على أنها حميدة لأنه نبذ إمبراطورية الفتح و اختار إمبراطورية التحويل إلى اعتناق

الدين المسيحي . لكن تشبيهه الذي يقـارن " الشعوب المتوحشة " بالتربة غير المفلوحة إنما يصور الهنود على أنهم أكثر سلبية بكثير مما في حجاج سيبولبيدا . فخلافا لمشروع الأخير والخاص بالتربية المدنية ، فإن ما نجده هنا هو مشروع فلاحة : بدلا من التربية ، نجد **الفلاحة** ، و بدلا من التوجيه الأبوي ، نجد فلاحة العقل غير المفلوح .

لقد كان لاس كاساس متغطرسا غطرسة سيبولبيدا في اعتقاده بأن الإسبان و المسيحيين عموما ، " على طريق الحق " . و في مرحلة مبكرة من مسيرة حياته العملية ، أعلن أن " ديننا المسيحي ملائم و يكمن تكييفه لجميع أمم العالم ، و كلها على حد سواء يمكنها تقبله " ، و اعتبر هذا الكلام "المفهوم الأساسي الذي سوف **غرس** يوجه كل عمله دفاعا عن الهنود" . و على مستوى الإعلان فإن الدين الحق ، كما أوضح لاس كاساس مرارا ، إنما يستبعد العنف . و إذا كانت الحجة الكامنة وراء التربية المدنية التي يتحدث عنها سيبولبيدا هي السيف ، فإن ما يتصل بفلاحة لاس كاساس كان شفرة المحراث ، رمز السلم . لكن شفرات المحاريث يمكن بسهولة طرقها و تحويلها إلى سيوف ، بل إن لاس كاساس نفسه قد تصور أن يبني الإسبان في أمريكا حصونا و قال إنه لا بد من بقاء عدد صغير من الجنود هناك لحماية المبشرين .

لقد قيل إن المجادلة الإسبانية حول "حقوق الهنود" ، لم تكن مدفوعة " بمجرد القلق الفكري أو الأخلاقي ، بل كانت مدفوعة بالحاجة الملحة إلى تنظيم الإمبراطورية الاستعمارية الجديدة ، سياسيا و اقتصاديا و اجتماعيا " . و من الصعب تمييز الى أي حد خدم المتجادلان تلك الحاجات البراجماتية . يقال إن لاس كاساس قد أثر على روح القانون الأساسي لعام ١٥٧٣ ، و الذي حظر استخدام كلمة "الفتح" و استبدل بها كلمة "التهدئة" التي لا غبار عليها من الناحية

السياسية . أما الى أي مدى حددت مثل هذه القوانين مسلك الإسبان في أمريكا فتلك مسألة أخرى . على أن نزعة لاس كاساس الخيريةو نزعة سيبولبيدا الانسانية ، كفكرتين ، كان من شأنهما سواء بسواء أن تكون لهما آثار مدمرة على السكان الأصليين لو طبقتا . لقد عبرتا عن الموقف الأساسي لماأصبح آنذاك أوروبا تجاه العالم الخارجي الذي يسكنه كفار و وثنيون . و سأنتقل الآن إلى مسألة إرتباط لاس كاساس و سيبولبيدا بالتراث الفكري الذي صيغ هذا الموقف ضمن إطاره .

٢- الهنود الحمر و الأتراك

كانت الحياة الفكرية في إسبانبا القرن السادس عشر تحت هيمنة الرينسانس اللاهوتي و الحقوقي الإسباني . و يناقَش لاس كاساس و سيبولبيدا عادة في سياق هذا الرينسانس ، مع تساؤل بعض المعلقين حول مدى تمثيلهما لذلك الوسط الثقافي . و هكذا ، مثلا ، قيل إن "لاس كاساس لم يكن الشخصية المحورية للتراث المشار إليه ، بل إنه كان يفتقر الى المكانة التى كان من شأنها أن تساعده على أن يكون كذلك " ؛ و إن سيبولبيدا كان يمثل "الأيديولوجية الأوربية القديمة ، التي تجاوزها في إسبانيا رجال مثل فرانشيسكو دي بيتوريا و دومينجو دي سوتو " .

و مثل هذه التحفظات قد تساعدنا على فهم لاس كاساس وسيبولبيدا فهما أفضل . إلا أن من المضلل النظر إلى سيبولبيدا على أنه يدخل "دون روية" "ساحة غريبة" و يدافع عن "أفكار غريبة استعارها ببساطة من أوروبا القديمة" . فمن ناحية ، كان الرينسانس اللاهوتي -الحقوقي في إسبانيا (الذي كان سيبولبيدا غريبا عنه بالفعل) متأصلا هو نفسه فى التقاليد الفكرية للعصر الوسيط : إن التشديد الذي وضعه المؤرخون على ما كان -أو على ما بدا- جديدا في ذلك الرينسانس هو وحده الذى غيّب عن أبصارنا نَسَبَهُ الذي يرجع الى العصر الوسيط . و من الناحية الأخرى ، فقد أشار لاس كاساس و سيبولبيدا نفساهما بإسهاب الى ، و وضعا حججهما ، ضمن إطار مذاهب و أفكار أوروبا العصر الوسيط . و قد استشهد كلاهما ، دعما لمواقفهما المتنافرة، الى مرسوم البابا اليكسندر السادس ، ضمن أشياء أخرى ، متذرعين بذلك بتراث يرجع الى القرن الحادي عشر . و قد دعما حججهما **بمرجعية** البابا

أينوسينت الرابع و هوستينسيز ، ناهيك عن شخصيات أقل مكانة لها دورها المحوري في تطوير المذهب المسيحي الخاص بمعاملة غير المسيحيين . و باختصار ، فإن المتجادلين في بايّا دوليد لم يستعيرا "أفكارا غريبة" من "أوروبا القديمة" . بل إن القرون الثلاثة الممتدة من إينوسينت الرابع الى المناقشات الإسبانية حول الهنود "قد شكلت فترة متماسكة في تطور المواقف الأوربية تجاه غير الأوربيين" . و لم تكن تلك الأفكار "غريبة" عن العالم الذي عاش فيه لاس كاساس و سيبولبيدا ؛ و اكتشاف عالم جديد لم يؤد ببساطة الى تحويل أوروبا العصر الوسيط الى "أوروبا القديمة" . بل إن العكس هو الصحيح ؛ فقد كان هناك حضور بارز للعصور الوسطى في فتح أمريكا .

و لم يؤد اكتشاف أمريكا الى زعزعة البنية الأساسية للحجة المتعلقة بالعوالم و بالشعوب غير الأوربية ، ، و التي صيغت في شكل قانوني في منتصف القرن الثالث عشر . و لم يكن الاكتشاف قطيعة مع الماضي . فالأثر المباشر **للاكتشاف** على أوروبا قد يكون أي شيء إلا أن يكون تثويريا . و قد ذهب إيليوت بشكل مقنع الى أنه " فيما يتعلق بالتحولات السياسية الأساسية على الأقل " – "فإن رفض الدول قبول استمرار أي شكل من أشكال الخضوع لسلطة إكليريكية غير قومية ؛ و الاتجاهات الاستبدادية لأمراء القرن السادس عشر ؛ و تطور نظريات و ممارسات جديدة لتنظيم العلاقات بين دول مستقلة ذات سيادة –كل هذه التطورات تعد مفهومة تماما في قارة أوربية ما تزال تجهل جهلا تاما وجود أمريكا" .

و يبدو لي أن فكرة محورية اكتشاف أمريكا بالنسبة للتاريخ الأوروبي ليست نتيجة للاكتشاف نفسه بقدر ما هي نتيجة لظهور "العالم الأطلسي" و هيمنته على الكرة الأرضية ، والتي حسمتها الثورتان الأمريكية و الفرنسية .

إن محورية اكتشاف أمريكا كانت من عمل مفسرين -لعب بينهم المؤرخون دورا أساسيا- لا من عمل مكتشفين و فاتحين .و كلام فرانشيسكو لوبث دي جومارا ، الموجه إلى الإمبراطور شارل فى إهداء كتابه ((**إسبانيا الظافرة**)) (١٥٥٢)، و الذي يذهب فيه إلى أن اكتشاف أمريكا هو أعظم اكتشاف حدث (باستثناء تجسد الرب) منذ خلق العالم ، لم يكن غير الدوي الافتتاحي لورشة التاريخ المرافقة لتكوين عالم أطلسي المحور. و هي ورشة تاريخ نزحت التاريخ الأوروبي على أخرين لم يكن لديهم مبرر لكي يكونوا معنيين به ، لكن الأوربيين استخدموهم لتأسيس مواجهة مع أنفسهم . (أما بأي طائل فهذا ما لا نناقشه هنا).

و عندما كان لاس كاساس و سيبولبيدا يتبادلان الحجج في بايا دوليد ، كانت أمريكا ما تزال قليلة الأهمية بالنسبة لأوربا . إن التاريخ الأوروبي ، بوصفه تاريخا **أوربيا** (أي بوصفه الوعي الذاتي لذلك الكيان الجماعي الجديد الذي حل محل **الجمهورية المسيحية**) كان في صميمه تاريخ حرب خيالية و فعلية ضد الإسلام . و ما كانت أوروبا ، آنذاك ، أكثر اهتماما به من أهتمامها بأمريكا ، هو الشرق ، العالم الإسلامي ، الذى أصبح " التركي" تمثيلا له . والحال أن اكتشاف أمريكا ، بعيدا عن أن يكون قطيعة مع ذلك التاريخ ، قد وقع في أسر شباكه الرمزية . و بأكثر من معنى ، كان الاكتشاف "نتيجة فرعية غير مباشرة للحركة الصليبية "، و ليس من السهولة بمكان نبذ الحجة التى تذهب الى وجوب اعتبار سقوط القسطنطينية "نقطة تحول" أكثر حسما في التاريخ الأوروبي من أكتشاف أمريكا . و نتائج دراسة أتكنسون للأدبيات الفرنسية في القرن السادس عشر يمكن اعتبارها مؤشرا ليس فقط فيما يتعلق بفرنسا وحدها . و قد أظهرت الدراسة أن الكتب التي نشرت عن

الأتراك ، و كذلك عن بلاد الهند الشرقية و آسيا ، كانت أكثر بكثير من الكتب التي نشرت عن أمريكا ؛ و أن ما نشر عن الأتراك كان ضعف ما نشر عن العالم الجديد ؛ و أن الكتب المكرسة للأتراك ولآسيا كانت أربعة أضعاف الكتب المكرسة لأمريكا . على أن ذلك، بالنسبة لحجاجي هنا ، هو مجرد قرينة . أما الأقرب الى موضوعي فهو الدليل الخاص بشيوع النظر إلى **الفتح** [فتح أمريكا .-المترجم] ، من الداخل أيضا ، باعتباره مواصلة **لإعادة الفتح** [الاسترداد ؛ استرداد الأراضي التي كانت مسيحية في السابق مثل الأندلس .-المترجم] . و أن تكون إسبانيا "أرض الحرب الصليبية الدائمة" فإن ذلك لم يكن شيئا عديم الأهمية . و لأن **إعادة الفتح** كان يجري النظر إليها غالبا على أنها جزء لا يتجزأ من " استرداد الأراضي المقدسة"، فليس غريبا أن كولومبوس ، عندما اكتشف الفردوس الأرضي ، قدّر عظمة الثروة هناك بعينين ملتفتتين الى الشرق : إنها ثروة ضخمة بما يكفي لتمويل جيش ضخم يمكنه استرداد القبر المقدس . و بشكل واع ذاتيا و سافر قدم **الفاتحون** عروضا تمثيلية لمآثر إل سيد ؛ وساعدهم قديسون صليبيون ؛ و في احتفالاتهم في إسبانيا الجديدة عرفوا كيف يقدمون عرضا تمثيليا لحصار **الأتراك** لرودس . على أن ما أود توضيحه هو أن "**الأتراك**" قد خدموا كمبدأ منظم في الاقتصاد الداخلي لتفكير لاس كاساس و سيبولبيدا .

وفي عام ١٥٢٩ ، كتب سيبولبيدا بحثا قصيرا موجها الى شارل الخامس ، يستحث الامبراطور على خوض الحرب ضد الأتراك . و قد أعرب عن أسفه للاستبداد التركي و ذهب إلى أن الحرب ضد الأتراك تعد مثالا لا جدال فيه للحرب العادلة . وبالمقارنة مع هذه الحرب ، تشحب جميع الحروب الأخرى التي انخرط المسيحيون فيها : " فالموضوع هنا لا هو

المجد و لا هو الثروة بل الوطن و الدار و الحرية و الخلاص و الدين ". و كما يبين عنوان البحث بالفعل : ((**إلى شارل الخامس... من أجل التوصل إلى السلم مع جميع المسيحيين و خوض حرب ضد الأتراك**)) ، فإن سيبولبيدا قد ثبت نداءه التحريضي برسوخ في اللحمة الأيديولوجية التي كانت منذ زمن طويل بحلول ذلك الوقت الصالح العام الروحي الأوروبي : أنه يجب تأكيد السلم داخل المسيحية حتى يتسنى للمسيحيين خوض الحرب ضد الأتراك . أما رسالة "**ديموكراتيس الأول**" ، التي كتبت بعد ذلك بسنوات قليلة ، فقد كانت رد سيبولبيدا على احتجاج طلابي كان قد شهده خلال زيارته لكلية سان كليمنت ، و هي كلية إسبانية نخبوية في بولوجنا كان قد تعلم هو نفسه فيها . ففي وقت كانت إسبانيا تحارب فيه الأتراك ، زعم الطلاب أن "كل حرب ، بما في ذلك الحرب الدفاعية ، إنما تتعارض مع الدين الكاثوليكي" . و الحال أن سيبولبيدا ، في رسالته "**ديموكراتيس الأول**"، قد دحض هذا الرأي، الفاضح في رأيه . و الآراء التي صاغها في هذا السياق سوف يطبقها فيما بعد ، في رسالة "**ديموكراتيس الثاني**"، على المسألة الهندية ، ماداً المعاملة التي كان الأوربيون و أسلافهم جماعة الجمهورية المسيحية قد تصوروها للتعامل مع المسلمين ، إلى الهنود الأمريكيين. و لاشك ان سيبولبيدا، كما استنتج أحد العليمين ، قد" استخدم الحجج المُبررِة للحرب ضد الأتراك لتبرير الحرب ضد الهنود " .

أما استراتيجية لاس كاساس الحجاجية فقد كانت أقل خطية . و بينما تقاسم مع سيبولبيدا مبادئ أساسية ، فقد كان راغبا في التوصل إلى الاستنتاج المضاد . لقد تبنى الآراء نفسها التي تبناها

خصمه عن الأتراك ، لكنه خلافا له زعم أن الهنود ليسوا "أتراكا" ولذا لا يجب معاملتهم كأتراك . إن فكرة الاختلاف بين المسلمين وسكان أمريكا الأصليين هي محور تفكيره ، و إذا ما تحدث أحد عن حبه للهنود ، فلا بد له من أن يتحدث أيضا عن كرهه للأتراك . والواقع أن حبه للأولين قد تغذى على كرهه للأخيرين .

لقد قيل إن لاس كاساس ، في تشديده على الاختلاف بين الهنود و الأتراك ، كان أكثر تمشيا من سيبولبيدا مع الخطاب السياسي الإسباني في ذلك العصر ؛ و إن موقف الإسبان تجاه الهنود الأمريكيين بدا ساعتها "أرقّ بشكل مشهود" بالمقارنة مع موقفهم تجاه غير المسيحيين الآخرين الذين يعرفونهم ؛ و إنه كان " من حسن حظ الهنود أن لاس كاساس ، جنبا الى جنب فرانشيسكو دي بيتوريا و دومينجو دي سوتو ، قد شدد على الفارق العظيم بين الحروب ضد الهنود و الحروب ضد العرب المسلمين و الأتراك". و بالنظر إلى صدارة نظرية الحرب العادلة في تلك الأزمنة ، فإن الفارق الأساسي بين الحروب كان هو الفارق بين الحروب العادلة و الحروب غير العادلة . و لأن من الشروط الضرورية لحرب عادلة أن تخاض من خلال سلطة شرعية ، فإن طبيعة الحروب المسيحية ضد غير المسيحيين لا تتوقف فحسب على الجرائم ، التي يجري اعتبار غير المسيحيين مذنبين باقترافها و التي يمكن اعتبارها أسبابا عادلة للحرب ؛ بل تتوقف أيضا على ما إذا كان بوسع الحكام المسيحيين أن يزعموا لأنفسهم سلطة شرعية على غيرمسيحيين محددين . وكانت رغبة لاس كاساس تتمثل في إثبات عدم إمكان خوض حرب عادلة ضد الهنود الأمريكيين . و لذا فقد كان عليه أن يثبت ضرورة استثناء الهنود من تلك الحالات التي

تظن الكنيسة و الأمراء المسيحيون فيها أن بوسعهم أن يزعموا لأنفسهم سلطة قانونية على غير المسيحيين .

و قد ذهب زعم لاس كاساس إلى أن الكنيسة تمنح الجميع الأمل في الخلاص ، و أنه ، بهذا المعنى ، فإن " جميع الكفار يأملون في قدرة الكنيسة على ممارسة السلطة ، و لكن بشكل مختلف للغاية ، تبعا لجنسهم أو لنوعهم " . إلا أنه قد أوضح أيضا أن الكنيسة لا تمارس السلطة على جميع الكفار . و اهتداءً بهذه الفكرة الموجهة ، صنف لاس كاساس الكفار إلى ، أولا ، أولئك الذين يحيون في ظل ، و يعدون رعايا ، أمراء مسيحيين ، كاليهود والعرب المسلمين ؛ ثانيا ، أولئك الذين يحيون في ممالك تحت حكم أمراء كفار ، كالعرب المسلمين و الأتراك و السكيثيين و الفرس والهنود ؛ و ثالثا ، الهراطقة . و قد ذهب إلى أن الصنفين الأول والثالث يعدان تحت سلطة مسيحية لكن الحال ليست كذلك مع الصنف الثاني . و ترتيبا على ذلك ، فإنه لا يجوز لا للكنيسة و لا للأمراء المسيحيين أن يعاقبوا وثنيين يحيون في ظل أمرائهم الكفار على وثنيتهم و جرائمهم ، لأن الحكام المسيحيين لا يملكون سلطة قانونية عليهم .

ثم أوجد لاس كاساس تصنيفا ثلاثيا أخر للنظر في الاستثناءات للقاعدة التي تذهب الى أن الكنيسة ليس لها حق معاقبة الكفار حيثما لا تكون لها سلطة [ولاية] عليهم . وفي صنفين من هذه الأصناف الثلاثة ، فإن الكنيسة لها سلطة على الكفار ، و إن كانت من طبيعة مختلفة . إن الصنف الأول في هذا المخطط التصوري هو الكفار الذين يحيون و يعملون ضمن إطار العالم المسيحي و لذا فإنهم " رعايا للكنيسة ، أو لعضو في الكنيسة ، على سبيل المثال ، لأمير مسيحي " . و عليهم تملك الكنيسة سلطة قانونية فعلية ، و لكن

ليس على الصنف الثالث الذي يندرج تحت " السلطة [الولاية] المختارة" - أي السلطة التي لا يمكن ممارستها على أي شخص دون إرادته . و مثال ذلك ، سلطة البابا ، النائب عن المسيح ، و الذي تتمثل مهمته في نشر البشارة المسيحية بين جميع شعوب العالم . و هذه السلطة اختيارية لأنه لا يمكن إرغام أحد من جانب الحبر الكاثوليكي الأعظم على قبول الدين الكاثوليكي ؛ إن بالإمكان فقط حث الناس و دعوتهم سلميا و بالموعظة الحسنة الى قبوله . و الصنف الثالث يمكن بسهولة ترجمته -بما يرتب على ذلك نتائج بعيدة المدى- إلى **قانون الأمم** ، حيث يعد **حق السفر** و **حق الدعوة التبشيرية** مبدأين محوريين . لكن هذا موضوع آخر ، و ما يهمنا هنا هو الاستثناءات للصنف الثاني . فإلى هذا الصنف ينتمي الكفار غير الخاضعين للسلطة المسيحية و إن كان بوسع الكنيسة (كما زعم لاس كاساس) أن تتولى السلطة عليهم بشكل استثنائي ، وهو ما يكاد يكون مرادفا لحق خوض الحرب (ضدهم) .

و قد قسم لاس كاساس هذه الاستثناءات إلى ست حالات : أولا ، عندما يتملك الكفار أراضٍ انتزعت دون وجه حق من الشعوب المسيحية ، خاصة إذا كان المسيحيون ما يزالون يحيون في تلك الأراضي . ثانيا ، عندما يمارس الوثنيون الوثنية في ولايات كانت في الأزمنة السابقة تحت السلطة المسيحية و (بكلمات لاس كاساس) يَنْتَلُّون برذائلهم الشنيعة و المقيتة أقاليم قدّسها فداء المسيح ودمه ؛ وكان الرب الحق يُعبد فيها و كانت الأسرار المقدسة تمنح فيها . ثالثا ، عندما يجدف الكفار ضد المسيح أو ضد القديسين ، أو يتحدثون بشكل واع حديثا خبيثا و مزدريا ، بحقد و باحتقار ، ضد الحقيقة المسيحية . رابعا ، عندما يعرقل الوثنيون نشر الدين "من حيث هو كذلك" و ليس "من باب الصدفة و عدم القصد"

، ويهاجمون بالكلمات أو بالأفعال أولئك الذين يودون اعتناق ، أو اعتنقوا بالفعل ، الدين ؛ و عندما يكونون قد فهموا ما يُدعَون إليه و مع ذلك يسيئون معاملة الدعاة . خامسا ، عندما يغزو الكفار بجيوشهم الأراضي المسيحية أو يهاجمون السواحل المسيحية و ، بأعداد كبيرة ، كالأتراك ، يمسون و يهاجمون و يزعجون العالم المسيحي ، أو كالمسلمين ، يقومون باختراقات متكررة في الأراضي المسيحية . سادسا ، عندما يضطهد الكفار دون وجه حق أشخاصا أبرياء ، فإن الكنيسة لها الحق في ممارسة سلطة قسرية لتحرير الضحايا .

إن الصوغ الدقيق لهذه الاستثناءات قد جعل من السهولة بمكان نسبيا إثبات أن المسيحيين لا حق لهم في خوض حرب ضد الهنود . فالحالتان الأولى و الثانية وصف واضح للوضع في الأرض المقدسة ، على نحو ما يجري النظر إليه من خلال عيون أوربية . والكفار الذين يقصدهم لاس كاساس في الحالة الثالثة هم اليهود والمسلمون ، الذين يرى أنهم يجدفون في الحديث عن يسوع المسيح بنيّة الحيلولة دون قبول الدين المسيحي و بنيّة عرقلة نشره . والحالة الرابعة ، شأنها في ذلك شأن الحالة الثالثة ، هي تعدّ على حق نشر الدعوة . إلا أنه في حين أن من المفترض أن المسلمين يعلمون ما تجري دعوتهم إليه ، فإن جهل الهنود المفترض قد أنقذهم من القسر المسيحي . و في حين أن الحالة الخامسة لا تدع مجالا للشك حول براءة الهنود ، فقد تطلب الأمر من لاس كاساس قدرا من الحذق حتى يثبت حالته السادسة : إن القرابين البشرية الهندية السيئة السمعة لا تشكل سببا عادلا لخوض حرب ضدهم .

إن توضيح لاس كاساس الذي يذهب إلى أن الحرب ضد الهنود غير مشروعة إنما يستند على نزعته الميالة إلى الحرب ضد

الأتراك و العرب و المسلمين . و قد أشير إلى أنه " لم يكن بأي معنى من المعاني مسالما " ، لأنه اعتبر بعض الحروب عادلة : مثال ذلك ، ضد المحمديين و الهراطقة . لكن الحس المبتذل هو وحده الذي يرى تناقضا بين الميل الى الحرب و نزعة المسالمة . لقد كان لاس كاساس متحدثا بلسان عالم يستخدم الحرب و السلم كوسائل تناوبية لإخضاع الآخرين . أما لماذا إختار السلم للهنود فذلك سؤال لن أحاول الإجابة عنه هنا ؛ و رأيي هو أنه كان بوسعه أن يدعو إلى معاملة سلمية للهنود لأنه قبل عدالة الحرب ضد المسلمين

و في آراء لاس كاساس عن المسلمين ، يمكننا أن نرصد ذهنية معادية لـ "الأتراك" كان يتقاسمها مع عالمه ، و تعبيرا قانونيا عن هذه الذهنية كله من صنعه . فمن ناحية ، لم يدخر لاس كاساس الشتائم عند حديثه عن المسلمين الذين كان مروقهم ، في رأيه و في رأي معاصريه ، مضادا للقانون الإلهي و الطبيعي . كما استخدم الاسم المسلم كسبّة ، عندما اتهم سيبولبيدا ، مثلا ، بأنه يريد نشر الدين بـ "الأسلوب المحمدي" ، أي "بالموت و بإثارة الرعب" . (لكنه لم يحجم عن إجازة استخدام الأساليب التي وصفها بأنها محمدية ضد المحمديين أنفسهم) . و ليس هناك في ذلك ما يدعو إلى الاستغراب . فهذه الذهنية ، التي لا تخص لاس كاساس بشكل خاص ، كان من شأنها ببساطة أن تقدم جوهرا للبنية الصورية لحجته .

و حجته ، من الناحية الأخرى ، مثيرة للاستغراب . فعلى طريق إثبات عدم إمكان خوض حرب عادلة ضد الهنود ، انتهى لاس كاساس الى رفض عام لفكرة الفتح بصفتها هذه . فقد رأى أنه "لا يجب أن يكون هناك حديث عن الفتح ، كما لو كان الهنود عربا أفارقة أو أتراكا ، بل يجب الحديث

فقط عن نشر بشارة المسيح "بكلمات رقيقة و ربانية" " . و ذهب إلى أن مصطلح الفتح نفسه مصطلح "استبدادي و محمدي و مهين و غير لائق و جهنمي" و أن الفتح ، من ثم ، لا يمكن أن يجري إلا ضد"عرب مسلمين من أفريقيا و الأتراك و الهراطقة الذين يستولون على أراضينا و يضطهدون المسيحيين و يعملون من أجل دمار ديننا " . و حتى تصمد الحجة ، كان لا بد من دعمها بمرجعية رسمية . و ما يدعو إلى الاستغراب هو أن لاس كاساس قد اختار ، دعما لتبريره لحقوق الهنود ، **مرجعا** ينكر أن يكون للكفار أية حقوق على الإطلاق .

فالمسألة القانونية المحورية بالنسبة لمذهب الكنيسة حول الكفار هي ما إذا كان لهم الحق في السيادة و الملكية -أي ، ما إذا كانوا ملاكا شرعيين للأراضي التي يسكنونها ، و ما إذا كان يحق لهم شرعا حكم أنفسهم . و في التراث القانوني الكنسي ، كان هناك انقسام حاد حول هذه المسألة بين إينوسينت الرابع ، الذي رأى أنه بموجب الشرائع التي تنطبق على جميع الناس ، فإن الملكية الخاصة و حكم الذات حق لجميع البشر **(لجميع الكائنات العاقلة)** ؛ و بين هوستينسيز الذي زعم أنه"مع مجيئ المسيح ، فإن كل منصب وكل سلطة حكومية و كل سيادة وسلطة قد انتُزعت من كل كافر بشكل شرعي و لسبب عادل و منحت للمؤمنين من خلال مَنْ [المسيح] يملك السلطة الأسمى و يستحيل عليه اقتراف الخطأ " . ودلالات الموقفين واضحة بالنسبة للسؤال : هل يجوز شرعا أو لا يجوز شرعا غزو أراضٍ يملكها الكفار و فرض الحكم المسيحي عليهم ؟ وقد استنتج هوستينسيز نفسه أنه ، "وفقا للشرع ، يجب إخضاع جميع الكفار لسلطة المؤمنين " .

و قد اختار لاس كاساس أن يشير بشكل إيجـابي إلـى هوستينسيز . و لم يكن ذلك اختيارا واضحا . ففي تـراث المذهب الإينوسينتي بـالأحرى ، قيّد بيتوريا ، و من بعده سواريث ، حق الإسبان في خوض حرب ضد الهنـود . و بينما صاغ هوستينسيز نظرية تمامية عن الحرب المقدسـة ، " تضـع دينـا فـي مواجهة الأديان الأخرى دون رحمة " ، وأعلن أن الحرب ضـد الكفـار عادلـة دائما ؛ لم تكن الحرب ضد غير المؤمنين، بالنسبة لإينوسينت و لأتباعه ، عادلة إلا تحت شروط معينة . كما أن اختيار لاس كاساس لم يكن انتهازيا : فقد كـان هوستينسيز فاقدا للاعتبار منذ أكثر من قرن قبل ذلـك . علـى أن هـذا الاختيـار كان مع ذلك اختيارا موفقا أو ، على الأقل ، اختيارا عرف لاس كاساس كيـف يجعله موفقا . فتعليقه الذي يذهب إلى أن رأي هوستينسيز "لا ينطبق دون تفرقـة علـى جميـع الكفـار بـل فقـط علـى الكفـار الذيـن كـانوا موجوديـن فـي زمـن هوستينسيز" ، انما يمنحه كل ما يريد : الحرب و السلم .

و مفارقـة نزعـة لاس كاسـاس القانونيـة هـي أنـه كـان عليـه أن يجـد وجودا خارج –قانوني للهنود حتى يتمكن من الدفاع عن معاملتهم معاملة سلمية . و كان اختياره ، و تفسيره ، لهوستينسيز ، (أب النظرية الحقوقية عن الحرب الصليبية) ، حاذقا . إن حجته التي تذهـب إلـى أن قـانون هوستينسـيز مـا يـزال ساري المفعول فيما يتعلق بالمسـلمين إنمـا تعنـي أن الحـرب الصليبيـة لـم يفـت أوانها ، لكنها لا تنطبق على الهنود .

و تكمن مفارقة أخرى في إشارة لاس كاساس إلى التراث الصليبـي – تجسيد موقف تجاه المسلمين كان في نهاية المطاف خارج إطار القانون . و منذ البداية تماما ، كان هناك توتر بين القانون الكنسي و الحـرب الصليبيـة : " لقد كانت الأيديولوجية الصليبية جد غريبـة عـن تفكير المشـرعين الكنسـيين بحيـث

أنها لم يجر دمجها في تراث القانون الكنسي عن الحرب العادلة إلا في القرن الثالث عشر ". و الحال أن لحظة عملية الدمج هذه ، و المجسدة في هوستنسيز ، كانت نقطة لاس كاساس المرجعية . لكن السؤال عن مدى ترويض القانون الكنسي بالفعل لـ "تعصب الحرب الصليبية" (و الذي أثارته من بعيد فقط كتابات أوغسطين المضادة للدوناتية [بدعة دونا و هو أسقف قرطاجة في القرن الرابع الميلادي]) ما يزال معلقا . إن "المسألة التركية" ، التي كان حلها يتمثل في الحرب الصليبية ، لم يكن بالإمكان أن يحتويها القانون في كليتها . و الحال أن البقية التي راوغت التقنين الشرعي ، **صورة التركي** ، هي التي مكنت لاس كاساس من الدعوة إلى الحرب ضد المسلمين و إلى السلم من أجل الهنود .

* * * * * * *

يوميات سنوات الطاعون:

ملاحظات حول المعاداة الأوروبية للقومية

غالباً ما يقال إن القومية هى طاعون أواخر القرن العشرين. لكن الاسم الحقيقى للطاعون هو معاداة القومية ، حين ننظر اليه على خلفية ما يجرى فى يوغوسلافيا السابقة . إن أحدا ما هناك ، واحداً من العدد الكبير من أولئك الذين عانوا معاناة مباشرة من الحرب ، لعله يكتب الآن ، أو سوف يكتب ، يوميات الموت و الكوارث التى كان عليهم مكابدتها . على أنهم قد يختارون محاولة نسيان الأهوال التى لا يمكن نقلها إلى أولئك الذين لم يكابدوها ، ويجب السماح لهم بأن ينسوا أكثر ما يمكنهم نسيانه و بأن ينسوه نسيانا تاما قدر إمكانهم. أما ما لا يمكن نسيانه أو اغتفاره فهو موقف أولئك الذين يسمون أنفسهم بالمجتمع الدولى : الحكومات الأوروبية و المؤسسات السياسية فوق القومية ، فى المقام الأول ، ولكن أيضاً ، المنظمات غير الحكومية و جزءا كبيرا من الجمهور ، وذلك بما يتناسب مع قوتهم الأقل . إن هؤلاء المشاهدين المحايدين المزعومين ، هم أصحاب الأدوار الرئيسية فيما يسمى بالأزمة اليوغوسلافية ؛ فعن طريق "حيادهم" انحازوا ولم تؤد "معالجتهم المتوازنة" إلا إلى تعزيز "افتقار الحرب المريع إلى التوازن".

لا حاجة إلى القول بأن الحرب فى البوسنة لها تاريخها . على أن هذا التاريخ لا يتغلغل بعيدا جدا فى أعماق مافات من الزمن . إن أوروبا هى التى تحيا غارقة فى تاريخها الخاص غير الفاتن بالفعل ، وهى التى تخيم عليها ذكريات الحروب الماضية وهي التى لم تعجز و حسب عن قهر العداوات التاريخية و إنما ترعاها وتنميها . وفى بحثهم عن عداوات عميقة الجذور فى البلقان ، لا يفعل الأوروبيون شيئا غير إسقاط وفرض عقلهم المعذب على أولئك الذين كانوا -بشكل يدعو إلى الاستغراب- أحراراً من عبء التاريخ. وبالطبع ، تتضمن الصورة الرائجة عن القبائل البلقانية الهمجية قدرا كبيرا من

العنصرية ، أيضا ، على أن هذه (العنصرية) نفسها تعد عنصرا حاسما في الماضي **الأوروبي الحي** . فمن يعتبرون أنفسهم **بشراً أرقى** لا يمكنهم الحفاظ على تماسك **فهمهم** للأمور إلا بالحط من شأن أولئك الذين لا يعتبرونهم من جنسهم . و**المفارقة** التي تدعو إلى السخرية في النظرة التي تنسب إلى البوسنة تاريخا عنصريا **هي أن الدولة البوسنوية في العصر الوسيط أتاحت ملاذا** لكثيرين من أولئك الذين فروا من الاضطهاد الديني في الغرب ، كما يبدو ، منذ فجر العصر الحديث ، أن الحروب في البلقان كانت أقل من الحروب في أوروبا.

إن المبدأ المنظم للخطاب في أوروبا حول الأزمة اليوغوسلافية و الحروب التي تلت تفكك يوغوسلافيا هو القومية . وإذا فُهمت القومية فهما أفضل فقد لا يكون ذلك المبدأ مبدأ مضللا . على أنه تجري تسوية القومية بالنزاع العرقي و بكره الأجانب وبالشوفينية و بالفاشية . و لأن هذا الفهم للقومية فهم زائف ، فإنه يشوه فهم ما يجري في يوغوسلافيا السابقة ؛ و ترتيباً على ذلك ، فإن سياسات الغرب ، القائمة على معارضة للقومية –سياسات معاداة القومية– هي سياسات مدمرة تماماً.

إن مصادر هذه المعاداة للقومية ، **مناهضة الدولة** ، هي مصادر متنوعة و صربيا ، التي هي في ظل حكمها الحالي فاشية فريدة ، هي نقيض دولة وفي سنوات أزمة و حرب يوغوسلافيا الأخيرة ، لم تحاول **(صربيا) قط** أن تصبح أمة . و حقيقة الأمر هي أنه لا يمكن اتهام صربيا بالقومية . على العكس ، لقد أصبحت السلطة هي الشعب : وأصبحت الأمة الصربية هي "الشعب".و في ألمانيا الثلاثينيات من القرن العشرين ، سُميت هذه العملية **بشعبنة الأمة** . و في صربيا ، أصبح الشعب ليس أصل (مصدر) السلطة بل

السلطة نفسها – المباشرية العرقية للكينونة القومية . وترتيبا على ذلك ، فقد جرى الإعلان ، بمرجعية مثقفين صربيين بارزين ،أن صربيا كانت ، ويجب أن تكون ، ليس فقط حيث يحيا الصرب ، وإنما أيضا الأرض التى يُدفَنون فيها . وسعيا إلى إشراك الأموات فى مهرجان الحياة الصربية الجديدة ، جابت رفات القيصر لازار البلاد ، وفُتحت القبور ، وبين شعائر أخرى ، جرى – حرفيا– "إعطاء حمام شمس" لرميم العظام . وكان على الحكم الصربى أن يتأسس على الدم والأرض ، بحيث يمتد مسافة بعيدة لكى يشمل كل أحياء وكل أموات ذلك الجنس ، بصرف النظر عن أية مؤسسات مدنية قائمة ، و كان يجب "تطهير" هذه الأرض من "الذرية النجسة"ل "الأجناس المنحطة". ويبدو أن كرواتيا تميل إلى السير فى طريق مماثل بقدر ما أن الأمة، تحت ضغط الحرب وتحت القيادة العاجزة ، تتحول إلى "طائفة" .

إننى لا أرمى إلى أن الدولة هى خير أخلاقى (ناهيك عن أن تكون الخير الأخلاقى) . على أنها خير بالمعنى الذى يُعَدُّ به النظام المدنى خيرا . و هذا الخير هو ما تدمره بالفعل المعاداة الأوروبية–الصربية للقومية . ويبدو أن سلوفينيا قد نجت من أسوأ الأمور ، أما كرواتيا فإنها تصبح مكاناً مروعاً للعيش . وفى البوسنة ، حققت معاداة القومية أكبر نجاح لها . فتناسبا مع درجة إحباط أو تدمير السيادة القومية ، فإن سياسات المركزية العرقية و الشوفينية وكره الأجانب و العنصرية و الفاشية إنما تكتسب قوة دفع . إن سياسات معاداة القومية قد ولّدت الكراهية العرقية والنزاع العرقي . وبالنسبة للزمرة الحاكمة فى بلجراد ، كان ذلك هو نقطة الإنطلاق ؛ إلاّ أن الأمر تطلب لوردين إنجليزيين وسياسيا فخريا أمريكيا حتى يتسنى صوغ أطروحة النزاع العرقي كمبدأ موجه للسياسة الأوروبية– الأمريكية الرسمية . وفى مارس ١٩٩٢،

فرضوا فى البداية على البوسنة مشروعا عاما للتقسيم العرقي (ما يسمى بخطة التقسيم الى كانتونات) ، و الذى قدم برنـامج العدوان الصربـى الأول فـى ذلـك البلد. (كما لو كان بحاجة إلى مثل هذا البرنامج . إن ما كان يريده هو نوع مـن الإجازة و التصريح . وقد تم تقديمهما . فالحرب قد نشبت فى ذلك الشـهر) . و عندمـا حققت موجـة العدوان الأولـى أهدافهـا الأساسـية ، رسـم الديبلوماسـيون الغربيون خريطة عرقية أكثر تفصيـلا، وقعهـا فـانس و أويـن ، كمـا لـو كـانوا يريدون تحديد أهداف لمواصلة الحرب . وكان الصـرب و الكـروات متحمسـين للتحرك ولتنفيذ ، أو لتصحيح ، هذه الخريطة . ومن غير المعقـول أن يعترف اليوروقراطيون [حكام أوروبا] بأن "خطـة السـلام" التـى وضعوهـا تقـدم وقـودا للحـرب . إنهـم سـوف يواصلـون لعب اللعبـة الوضيعـة : إنهـم سـوف يلومـون الشعوب البلقانية "البربرية تاريخيا" على النتائج الإجرامية لـ "خطة السلام" التـى وضعوها – على كل ما لا يتطابق فى الواقع مع فكرة السلم فى أعين المتخلفين عـن مواكبـة الموضـة والسـذج . و بالنسبة لليوروقراطييـن، أصبحـت "خطـة السلام" هذه مناط شرف ، وقد تهلك البوسنة ، وسوف تهلك، لمجـرد أن يتسـنى لأوروبا إنقاذ "شرفها" . إن النخبة السياسية الأوروبية تطرح ، تحت اسـم الحـل السلمي ، عين النموذج الذى تنفذه الآن عن طريق حرب الإبادة التـى تخوضهـا القوات العسكرية وشبه العسكرية الصربية – والكرواتية الآن أيضا .

ومن المؤكد أن ذلك ليس تعـاملاً شـكلياً مـع السياسـة . فقـد نجـح فـى العثور على جوهر . كما أنه قد نجح فى هدم الهيـاكل الرسـمية القائمـة التـى لا يمكن تصور النظام المدنى دونها . إن الإحكام الذى فكك بـه الغـرب الحكومـة البوسـنوية ليس مـن شـأنه إلا أن يحـوز إعجـاب فلاسـفة التفكيـك . و يبـدو ان الديبلوماسـيين الغربييـن لـم يستشـعروا حرجـا فــى تصعيـد زعمـاء عصابـات

صربيين من البوسنة إلى مستوى أنداد لهم فى المفاوضات . بل إن الرئيس الفرنسى قد تجشم عناء السفر إلى سراييفو لكي يجرى محادثات معهم . فمن الواضح أن إقامتهم لجهاز جد نشيط فى مجال الاغتصاب والقتل تستحق الإحترام . كما اختار السياسيون الأوروبيون و الأمريكيون التعامل مع الكروات البوسنويين، الممثلين فى الحكومة البوسنوية ومن خلالها ، ككيان منفصل . والنتيجة أنه جرى إعلان أن الحكومة لا تمثل غير المسلمين البوسنويين وجرى وضعها على مستوى واحد مع من يسمون أنفسهم بالزعماء الكروات ومع الإرهابيين و مجرمى الحرب الصرب . وبدلا من معاملة الأخيرين كخارجين على القانون ، جعل الغرب الحكومة المنتخبة ، خارجة على القانون ، بالفعل ، بتصويره اياها على أنها "فصيل محارب" إشكاني وبإرغامه اياها على التعامل مع أولئك الذين يتمثل هدفهم فى تدميرها – أي أنه قد جرى إرغامها على المشاركة فى تدمير نفسها . لقد تطابقت خطط الدبلوماسيين الأوروبيين والفاشيين الصرب (وكذلك الكروات ، الذين أسعدهم كثيرا أن يبدأوا فى المشاركة فى تقسيم البوسنة) . فالأوائل كانوا يهدمون الحكومة الشرعية فكريا ، في رؤوسهم و حول موائد المؤتمرات ؛ و الأواخر كانوا يهدمونها ماديا ، على الأرض . وهؤلاء وأولئك كانوا يعاملون الحكومة على أنها فصيل عرقى محارب : فصيل مسلمين محاربين .

ومع الانهيار التدريجى للنظام المدنى، مع "زوال المجتمع ؛ ومع ما هو أسوأ الأشياء ، أي مع الخوف المتواصل و خطر الموت من جراء العنف ، وحياة الانسان التى تتميز بالوحدة و البؤس وبالقرف و بالتوحش وبالقِصَر"، تتجسد هواجس أعداء القومية الغربيين، لقد أثمرت سياساتهم . هنا يجدون "القومية" **فى التطبيق** و مع استمرار الحرب ، حيث تمس جميع من يتصلون

بها ، و تلقنهم دروس الممارسات الإبادية الصربيــة ، سـوف يكـون مـن الســهل تمامـا القـول بأنـه لا وجـود هنـاك لـ "أولاد طيبيـن" فـى الـنزاع ورسـم صــورة لمخلوقات غريبة كليا عن الجنس الغربى المتحضر . وبهذا الشكل يجرى تقديـم تبرير رجعى المفعول للسياسات الغربيــة ، بمـا يخفـى الحقيقـة المحرجـة والتـى تتمثل فى أن هذه السياسات قد ساعدت على خلق الوقـائع . والحـال أن فهـم مـا يفعله الغرب إنما يعد من السهولة بمكانٍ كبته لأن النظرة إلى البلقانيين بوصفهم عرقيين ، إن لم يكن بوصفهم عنصريى النزعة ، إنما تثبت أنه "لا يمكـن عمـل شىء" (إن القوة الغربية تبدو متدثرة بالعجز، عندما يكون ذلك مناسبا) . وإذا كان "لا يمكن عمل شىء" ، فإن الاستنتاج السهل و الزائف جاهز ومؤداه أنه لـم يجر عمل شىء – وذلك بقدر ما أن الاعتقاد الرائج هو أن الغرب لا يمكنـه أن يفعل غير الخير . وبما أن هذا الفصل الحاسم ، حول ما فعله الغرب بـالفعل ، غـائب عـادة مـن القصـة ، فـإن لا عقلانيـة أولئـك الذيـن يجـرى الزعـم بـأنهم المتورطون الوحيدون فى النزاع ، أى القبائل الأصلية التـى تسـكن البلـد ، إنمـا يجرى تسليط الضوء عليها و تضخيمها فى نظر العين الغربية المحايدة .

على أن الاستنتاج الذى يهنىء نفسه بنفسه والذى يذهب إلى أن الغرب كان محقا فى معاداته للقومية منذ البداية هو استنتاج فاسد، ليس فقط بمعنى أنه يُعَرِّف واقع القومية بأنه كراهية عرقية (ولَّدتها سياساته هو المعادية للقوميـة) . فهناك فساد أعمق فى الأمر : فمعاداة القومية ، أى معارضة السيادة القوميـة ، تعفى أعداء القومية من معارضة الكراهية العرقيـة ، ومـن معارضـة الشـوفينية والعنصريـة والفاشية . إنهم معـادون للقوميـة لكيـلا يتعيـن عليهـم أن يكونـوا معـادين للعنصريـة ومعـــادين للشــوفينية ومعـــادين للفاشــية . وهــم معـادون للقوميــة لأن القوميــة ، فــى رأيهــم ، تســاوى العنصريــة

والشوفينية و الفاشية . لكن ما يفعلونه عندما يساوون القومية بالعنصرية وبالشوفينية وبالفاشية هو أنهم يخلقون عدوا متخيلا . فهذه الظواهر ، إذ يجرى ربطها معا لتصبح **حزمة** ، قد لا يكون كسرها أسهل بالضرورة من كسر كل واحدة منها على حدة ؛ إلا أن من المؤكد أن محاربة خصم كبير وموحد وكلي الحضور وغير واقعى إنما توفر إشباعا أعظم بكثير من الإشباع الذى قد يوفرها الاشتباك مع حقائق واقعية غير سارة وخشنة ومجزأة . لكن المسألة لا تنحصر فى أن حربا صليبية ضد عدو متخيل من شأنها أن تحرر المرء من مواجهة مخاطر واقعية ؛ بل هى أن معاداة القومية – إذ تترك العنصرية والشوفينية والفاشية دون تحد فعلى لها – إنما تضعف ، أو تدمر ، تلك المجموعة من المؤسسات التى تعد واقع القومية ، أي ، الدولة . وعندما يجرى إضعاف الدولة أو تدميرها، يضيع الشىء الذى يمكنه وحده كبح جماح الكراهية العرقية وكبح جماح الشوفينية والعنصرية والفاشية . والواقع أنه دون الدولة ، لا يمكن عمل غير القليل أو لا يمكن عمل أى شىء على الإطلاق ضد هذه الظواهر الخبيثة . على أن هذه الإشكالية لها جانب آخر مهم . فمعارضة هذه الأشياء سوف تتضمن بالضرورة شيئا من تأمل دوافع الذات ، شيئا من مساءلة النفس من جانب الغرب . فمعارضة السيادة القومية غالبا ما تتضمن معارضة واقع خارجى ، مواجهة "الآخر" و إعلاء المرء من شأن هويته هو . إن مواجهة الكراهية العرقية ومواجهة الشوفينية والعنصرية والفاشية سوف تعنى الاعتراف بأن الظواهر الخبيثة هى ظواهر داخلية ؛ وسوف تعنى وضع هوية الغرب – العالم الأفضل بين جميع العوالم الممكنة – موضع التساؤل– وهذا غير مسموح به .

إن عجـز الغـرب عـن مواجهـة الفاشـية الصربيـة غنـي بالدلالات، لكنه ليس غير متوقع . وفي "النزاع العرقي" الكبير الـذي دخل كتب التاريخ تحت اسم الحرب العالمية الثانية ، تم إلحاق الهزيمة بالفاشـية على المسـتوى العسكري . علـى أن الغرب لـم يفككهـا ولـم يدمرهـا قط علـى المستوى الرمـزي ، أي علـى المستوى السياسـي . وهـذا هـو السـبب فـي أن الفاشية ما تزال حية . وفي السياسـات المتبعـة تجـاه النظـام الصربـي الحـالي ، هناك كثير مما يستحضر ذكريات الحرب الأهلية الإسبانية و معـاهدة ميونيـخ : إن تقاليد سياسات استرضاء الفاشية ، والتي مثلها تشمبرلين تمثيلا جيدا ، إنمـا يبدو أنه لم يتم هجرها . لقد جرى بذل جهد كبير في الغرب حتى لا يتم وصف النظام الصربي بأنه فاشي بل للبحث عن الفاشية في مكان آخـر ، حيث تراهـا نظـرة بلجراد (دون التفكير قـط فـي أن الفاشـية قـد تكـون فـي تلـك النظـرة) . وبالدرجة التي جرت بها مواجهـة النظـام الصربـي و سياسـاته العدوانيـة ، فقد ووجهت على أنها "بلشفية" أو "شيوعية" أو "قوميـة" – والكـل أعـداء مـألوفون ، هزمهم التاريخ وتجاوزهم بالفعل . ولأنه قد تـم عمـل كـل شـيء لعـدم مواجهـة الفاشية الصربية بوصفها فاشية ، فإنه لم تجر مواجهــة صربيـا علـى الإطـلاق. إن أوروبا ليست فقط بعيدة ، مثلمـا كـانت بعيـدة دائمـا ، عـن التدمـير الرمـزي للفاشية : بل إنها الآن تحجم عن مواجهتها على المستوى العسكري .

وقد يصبح ذلك رسالة من رسائل "الحـرب اليوغوسـلافية" ، ويبدو أن الكروات هم أول من تعلم الـدرس . ومـن المفارقـات أنـه طـالما كان الكروات ضحايا للعنف الفاشي الصربي ، كـانت أوروبـا تسـميهم بالفاشـيين ؛ أمَّـا الآن وقـد بـدأوا هـم أنفســهم فــي محاربــة

المسلمين البوسنويين بالأسلوب الصربى ، **فإنهم ما عادوا يُوصفون** بـأنهم فاشـيون . وطالمـا كـان السـكان الكـروات فريسـة للإبـادة **الصربية**، كان الكروات يتهمون بأنهم أمة تمارس الإبادة ؛ أمّا **الآن** وقد بـدأوا **هم أنفسهم فى "تطهير" الأرض ، التى منحها إياهم صانعو السـلم الأوروبيـون ، من "الحثالة" المسلمة ، فإن هذه الاتهامات قد تلاشت .**

إن الخيال الأورويلى [الذى تتضمنه رواية جورج أورويل ، "١٩٨٤" – المترجم] الـذى جرت العـادة علـى إسقاطه ، دون تـردد ، علـى الشـرق الشيوعى ، يبدو أنه قد عاد إلـى موطنـه حيث أصبح حقيقـة . فالدبلوماسيون الأوروبيون (و دعاة المسالمة **الأقل** شـأنا) يقولـون إن الحرب هـى السلم و إن السلم هو الحرب . لكن هذه ، بشكل غريب ، لحظـة حقيقـة . إن خطـة السـلام الخاصة بالبوسنة انما تنتمي إلى تراث عريق . فالسلم الأوروبى لـم يفترق قط عن الحرب. و السعى الأوروبى إلى السلم كان يعـارض الحـروب فـى أوروبـا وحدها ، ولم يكن يرغب إلاّ فى الكف عن إراقة الدم المعمّد . وكان السبيل الى تحرير أوروبا من الحروب هو تصديرهـا إلـى أراضٍ غير أوروبيـة ، أو إلـى **هوامش** أوروبا . و علاوة على ذلك ، **فإن** فكرة الوحدة الأوروبيـة إنمـا ترتبـط إرتباطـا حميمـا بفكـرة الحـرب ، أو بحـرب فعليـة ، ضد عدو مـن الخــارج ، وكقاعدة ، فقد كان ذلك العدو **هو** المسلم . فالمسلم هو العدو الرمزى لأوروبا ، وأنـا لا أعتقد أنـه مـن بـاب الصدفـة حولـت السياسـة الأوروبيـة–الصربيـة البوسنويين إلى مسلمين . وسواء أكان ذلك قد تم من باب الصدفـة أم لا ، فمن المؤكد أن ذلك ليس له شأن يذكر .

إن صورة المسلم المحارب تستحضر كلا من **الرعب القديم** للغرب المسيحى ، المثقف والمتحضر ، والشبح الأحـدث الـذى يخيم علـى سياسـيين

ومثقفين غربيين ، شبح "الأصولية الإسلامية" . وبمجرد تسميتهم بـ "المسلمين" ، فإن البوسنويين الذين رفضوا الانضمام ، أو الاستسلام للتكوين العرقى– الأصولى الصربى أو الكرواتى ، قد أصبحوا غرباء تماما عن أوروبا . أمّا أنهم ، بصفتهم مسلمين ، قد إستُبعدوا من أوروبا دينيا و ثقافيا وسياسيا ، فهذا أمر متوقع . لكن الأكثر مدعاة للاستغراب هو شكل استبعادهم العرقى . فلأن البوسنويين سلافيون ، فإن الحجة المستخدمة غالبا ضد تقديم مساعدة فعلية إلى الحكومة البوسنوية – وهى أن ذلك من شأنه أن يزعج الروس الذين يتوحدون توحدا عميقا مع "إخوتهم السلاف" ، الصرب – هى فى الواقع هراء . ومع ذلك فمن مثل هذا الهراء يجرى "صوغ وصنع" السياسة الأوروبية . صحيح أن السلاف هم مجرد أوروبيين من الدرجة الثانية أو مجرد أوروبيين من باب ما يحتمل أن يصيروا إليه ، لكن المسلمين ببساطة لا ينتمون إلى أوروبا. وهذا هو السبب فى أنه يجرى الزعم بأن البوسنويين ليسوا سلافا.

لم يُبذل جهد كبير فى الغرب لتوضيح طبيعة المجتمع البوسنوي ، أى لتوضيح أنه مجتمع علمانى إلى حد كبير و أن المدن البوسنوية التى تسقط ضحية للغوغاء قتلة الحَضَر كانت مراكز للتعددية الثقافية و للتسامح الثقافى . و حتى لو كانت مثل هذه الجهود قد بذلت ، فما كان لذلك أن يمثل فارقا كبيرا . لأن النقاش ضد المشاعر و التصورات المعادية للمسلمين عبثى عبثية النقاش ضد معاداة السامية – فالحجج الكلامية لا يمكنها أن تغير شيئا . و تتمثل صعوبة أخرى فى أن من المستحيل الإثبات **بشكل ملموس** أن معاداة المسلمين هى لحظة تكوينية للسياسة الغربية فى البوسنة . إذ يجرى بنشاط دحض مجرد الإيحاء بأن الحالة قد تكون كذلك . على أن نتائج السياسة –أكانت واعية أم

غير واعية ، معلنا عنها أم مكذّبة ، مقصودة أم غير مقصودة- لا يمكن إساءة قراءتها . إنها نبوءة الدمار .

فالحقيقة الواضحة هى أن هناك إبادة للمسلمين البوسنويين تجرى فى الواقع و أن مرتكبيها لم تتم مواجهتهم بأى شكل فعال ، ناهيك عن وقفهم . و العقول المدبرة للممارسات الإبادية ضيوف مميزون فى المؤتمرات الدبلوماسية الأوروبية ، و مفاوضون أنداد (إن لم يكونوا أكثرندية) ، وتحت تصرفهم كل وسائل الاتصال الجماهيري التى يستخدمونها لنشر أكاذيبهم . و يقال أحيانا إن الحكومات الأوروبية تعوزها الإرادة لمواجهة الفاشية الصربية ، لكننى أخشى من أن يكون مبدأ هذا التفسير زائفا – فلابد أولا من إثبات أنها تريد التصرف بأى شكل مختلف . و يتطلب الأمر إرادة قوية لتحمل بشاعات الحرب فى البوسنة ، و لتحمل الإبادة، و هذه الإرادة لم تَعُزْ الغرب . إن سياسته هى سياسة معاداة للقومية تحت شكل معاداة المسلمين . فالأمة البوسنوية ، الدولة البوسنوية ذات السيادة ، يجب القضاء عليها ، ليس فقط لأن بناء الدولة يُنظر إليه على أنه مصدر إزعاج ، بل أيضا لأنه يجب تفادى خطر حضور سياسى مسلم فى أوروبا . و "الطريق الأقصر" هو اختزال عدد المسلمين البوسنويين بما يكفى بحيث يتخلون عن الأمل فى أن يكونوا شيئا آخر غير جماعة عرقية .

ولا أود أن أسمى ذلك مؤامرة . إنه أشبه بحلم و قد تحول إلى واقع . فطرد المسلمين من أوروبا هو الحلم الأوروبى . وتطهير أوروبا من "الأتراك" كان الفكرة الملحة لأعظم شخصية من شخصيات التنوير : فقد قال فولتير : "لا يكفى إذلالهم ، بل يجب تدميرهم" . و أفضى للامبراطورة الروسية : "انتصرى على الأتراك وسوف أموت مرتاحا" . وهذا الحلم ما يزال حيا حياة قوية ، حيا حياة الأحلام .

و الحرب ضد الدولة البوسنوية و إبادة المسلمين هى تنفيذ لوصية التنوير . إن الروح السادية للعقلانية المستنيرة الأوروبية مطلقة العنان . و الفاشيون الصرب يحققون الحلم الأوروبي . و إذا كان الحلم جد مريع بحيث يصعب على الأوروبيين أن يَحْيَوه بأنفسهم، فإنه يظل مع ذلك حلمهم هم . وإذا كان يتحقق بمساعدة الفاشيين الصرب و الكروات، فإن ذلك ليس من شأنه إلاّ أن يمنح الأوروبيين فرحة مزدوجة : فرحة تحقيق الحلم وفرحة عدم اضطرارهم إلى تلويث أيديهم هم بالدماء . إنهم يتمتعون بفرحة تحقيق بربريتهم و، فى وجه البربرية ، صون تحضرهم . و فى الوقت الذى يتجسد فيه خيالهم السياسى الأكثر جموحا ، فإنهم يمكنهم فى الوقت نفسه الاحتفاظ بموقف النقاد المذعورين لهذه الحياة الهمجية . إن بوسع عنصريتهم إتخاذ منطق سام ومحترم وهم يدينون القبائل البلقانية .

على أن هذا الحلم ، و هو كابوس البوسنويين ، لابد له من أن يصبح كابوسا للأوروبيين أنفسهم ، كابوسا لا يُبث عبر شاشات التلفزيون . إن حرمان البوسنويين من حق الدفاع عن أنفسهم هو عمل لا أخلاقى . و قول ذلك قد لا يكون خارج الموضوع كلية هنا، حتى وإن كانت الحجج الأخلاقية لم يعد لها ثقل كبير فى هذه الأيام . و الحيوانات السياسية ضعيفة الشخصية التى تحكم أوروبا إنما تنبذها بثقة عظيمة . إنهم يلتزمون بما يحسبونه **سياسة واقعية** ، على أن "**سياستهم الواقعية**" هذه ليست واقعية إلاّ بقدر ما ينجحون فى خلق واقع علىشاكلتهم . و بأى معنى مألوف للمصطلح ، فإن هذه ليست سياسة واقعية بل سياسة **فقدان للاحساس بالواقع** . على أن حرمان البوسنويين من حق الدفاع عن أنفسهم ليس فقط عديم الأخلاق . إنه

أيضا تدمير لليقين الوحيد الذى استند عليه أمن النظام الأوروبى الحديث : حق الدفاع عن النفس . و إذا كان البوسنويون يذبحون ذبح النعاج ، فلابد للمرء من أن يكون واعيا بكل من اليد التى تذبحهم و اليد التى تكتفهم حتى يتم ذبحهم . و الحال أن اليد التى تكتفهم إنما تمزق نسيج القانون الدولى فى مكانه الأكثر حساسية و حيوية .

أمّا المساعدة الانسانية فهى ليست علاجا –مع كل الاحترام الواجب لأولئك الذين ، فى سترة الأمم المتحدة ، يقدمونها . إنها أكذوبة : فاليد التى تطعم البوسنويين هى اليد التى تكتفهم تمهيدا لقتلهم . و قد قوبل الأمين العام للأمم المتحدة فى سراييفو بحشد يهتف "قَاتِل ! قَاتِل !". و أولئك الذين فى الغرب غير السعداء تماما بأداء الأمم المتحدة فى البوسنة (و يمكنهم التمتع بترف ألاّ يكونوا "عاطفيين") ، يمكنهم من باب أولى أن يتحدثوا عن إذلال للمنظمة الدولية فى البوسنة . على أن الإذلال لا يمكن أن يحدث إلاّ حيثما تكون هناك عزة و كرامة- وهى خاصية كان من المستحيل رصدها فى سياسة الأمم المتحدة بشأن البوسنة . كما أن البلدان العربية مخطئة عندما تتهم الأمم المتحدة بازدواجية معاييرها، لأنه يبدو أن هذه المنظمة ليست لها أية معايير على الأطلاق.

إنها جزء لا يتجزأ من سياسة لم ترفض و حسب وقف، بل أسهمت هى نفسها فى ، تدمير النظام المدنى و إختزال البوسنويين إلى حالة يضطرون فيها إلى الإعتماد على مثل هذه المساعدة . والحال أن المساعدة الانسانية هى عكس الوجود المدنى ، هى الوجه النبيل لنفيه . وكل ما يبقى لضحيا الإبادة هو الاعتراف الوضيع بأنهم بشر . على أن المرء لو تذكر حكمة التراث السياسى الأوروبى ، والتى تذهب إلى أنه "**إذا لم يكن المرء مواطنا ، فإنه ليس إنسانا** "

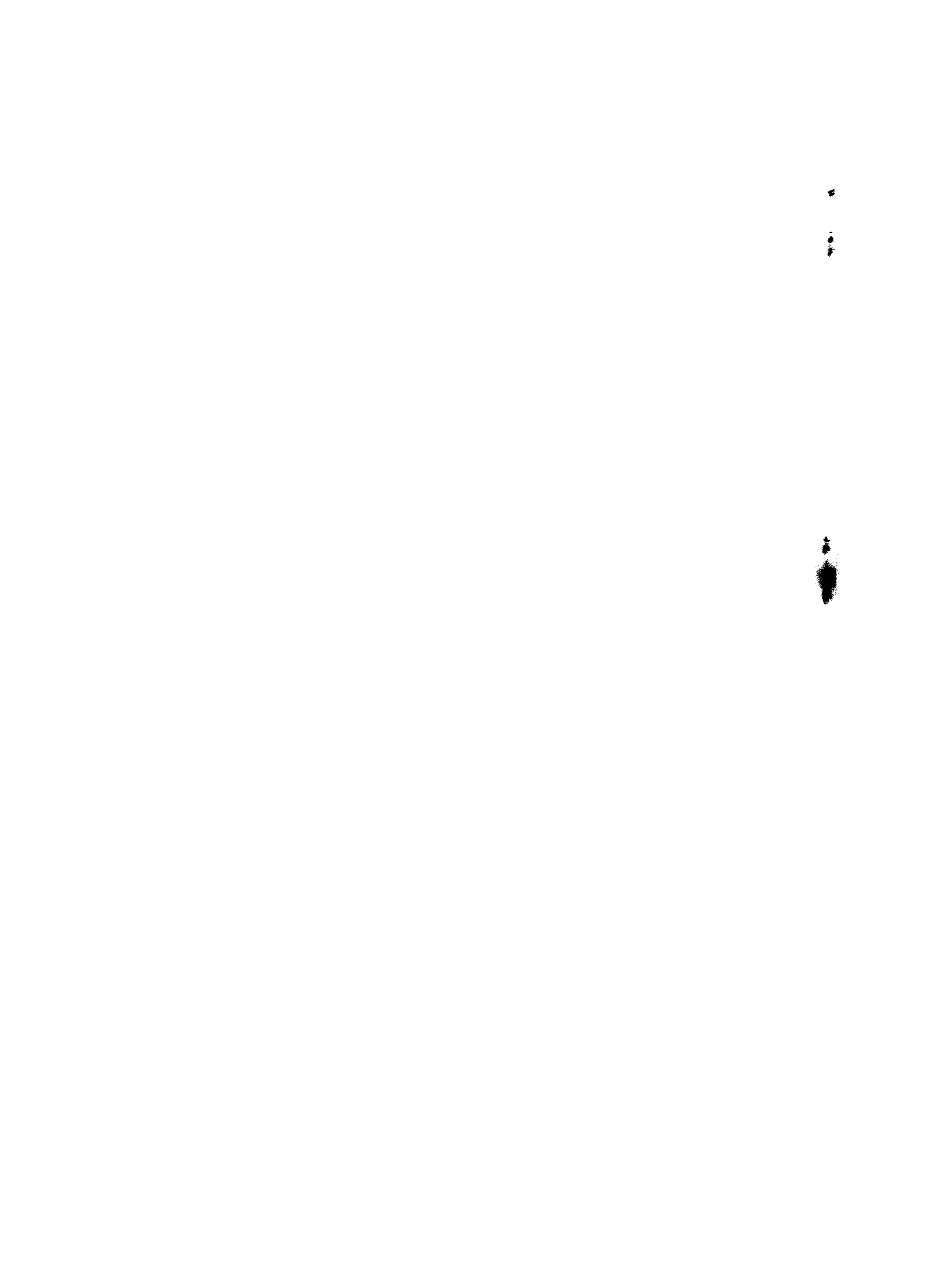
، فسنجد أنهم ليسوا بشرا . و هكذا فإن السياسة الغربية الخاصة بالمساعدة الإنسانية هى سياسة تجريد من الإنسانية - و ضربة أخيرة ضد النزعة الإنسانية . (و هذا شيء ليس من شأن الفاشيين الصرب—الكروات أن ينزعجوا منه : فهم لا لبس لديهم فى أن المسلمين ليسوا بشرا . و مهما كان ما يفعلونه ضدهم ، فإنهم لا ينتهكون بذلك حقوق الإنسان . إن "ثقافة حقوق الإنسان" ، وهى صيغة مختصرة للثقافة السياسية الغربية تمجد من خلالها الأخيرة نفسها بنفسها - ليست عرضة للخطر) . كما ان المساعدة الإنسانية قد خدمت كمبرر لتجنب عمل عسكرى غربى فى البوسنة . ولأن ذلك يسمى حفظا للسلام ، فإن المرء لا يمكنه إلاّ قول إنه من بين جميع الأسلحة التى اخترعتها أوروبا ، فإن "السلام" يبدو أنه السلاح الأكثر فتكا . و هكذا فإن المساعدة الإنسانية قد أنقذت على الأرجح عددا من الأرواح البشرية بينما كانت تسهم فى الوقت نفسه فى تجريد الحياة فى البوسنة من الإنسانية ؛ وفى الوقت نفسه ، فإن مفاوضي السلم ، الذين فرضهم ويقودهم اليوروقراطيون ، يتحملون المسئولية عن ضياع أرواح أكثر من الأرواح التى أضاعتها الحرب، بحصر المعنى .

و أحد الأسباب فى موت البوسنويين هو أنهم آمنوا بأوروبا . وقد ظنوا أن الاعتراف بدولتهم يتضمن نوعا ما من المسئولية من جانب "المجتمع الدولى" . لقد كانوا مخطئين تماما ، و كانوا مخطئين فى عدم تسليح أنفسهم عندما كان ما يزال هناك وقت لذلك . كما كانوا سذجا حين ظنوا أن تمسكهم بالقيم الأوروبية له أهميته - فبدلا من التضامن ، قابلوا العنصرية ، وبدلا من الدعم ، تلقوا الإذلال . وآمالهم المغدورة تكشف عن عجز أوروبا عن تقديم أي أمل . ووسط رعب و دمار الحرب ، أعرب مؤخرا مسئول كبير للأمم المتحدة فى البوسنة عن أمله فى أن يحترق مجرموالحرب الصرب أولئك المذنبون

بـاقتراف المذبحـة فـى سربرينيتشـا) فـى أكـثر أركـان جهنـم جحيمـا . و هـذا التضرع إلى السماء غنى بالدلالات . إذ يبدو أنه لـم يعـد هنـاك قضـاء أرضـى يمكـن طلـب العدل منـه . وإذا لـم يكـن هنـاك عـدل، فـى "المجتمـع الدولى" ، فإن هذا المجتمع **هو ملكوت لصوص** ، و قادتـه **قـاطعو طريـق** . و هذا التضرع إلى السماء هو أيضا غنى بالدلالات لأنه ليس "التضرع" اللوكـى [نسبة إلى جون لوك، الفيلسوف الانجليزى المعروف.- المترجم.] الشعبى "إلـى السماء" . و هذا يدلنا ، ضمنا ، على أن الليبرالية لم يعد لديها سوى القليل ، أو لم يعد لديها شيء على الإطلاق ، لكي تقوله . و الواقع أنه على خلفية الحرب البوسنوية يبدو أن الليبرالية قد إنهارت . وليس ذلك نهايـة للتـاريخ ، بـل نهايـة للتاريخ الليبرالي .

و قد تكون هنـاك تضرعـات أخـرى إلـى السـماء فـى المسـتقبل ، فـى سياق مختلف . إن نبوءة الدمار ، المكتوبة بالدم البوسنوي ، قد جرى البوح بها دون لبس بالنسبة لما ينتظر الديمقراطيات الغربية : بالنسبة لما ينتظر أوروبا.

* * * * * * *



(ملحق)

ليون تروتسكى

(مقتطف من مقا ل " المسألة البلقانية

والاشتراكية الديمقراطية")

١ (١٤) أغسطس ١٩١٠

هناك حاجة إلى تمييز جانبين فى ما يُعرف بالمسألة الشرقية: أولا ، أنها مسألة علاقات بين أمم و دول شبه الجزيرة البلقانية ؛ ثانيا ، أنها مسألة المصالح و الدسائس المتعارضة للدول الرأسمالية الأوروبية فى البلقان....

إن شبه الجزيرة البلقانية ، الضخمة ضخامة ألمانيا تقريبا ، و إن كان عدد سكانها لا يصل إلاَّ إلى ثلث عدد سكان ألمانيا (٢٢ مليون) ، هى مقسمة بين ست دول مستقلة : اليونان و تركيا ورومانيا و بلغاريا و صربيا و الجبل الأسود ، إلى جانب ولايات دالماتيا و البوسنة و الهرسك الخاضعة للامبراطورية النمساوية-المجرية....

إن الحدود بين الدول القزمية لشبه الجزيرة البلقانية لم تُرسم وفقا للظروف القومية أو وفقا للمطالب القومية ، بل كنتيجة للحروب و للدسائس الديبلوماسية و مصالح الأسر المالكة . و الدول العظمى -روسيا و النمسا، فى المقام الأول- كانت لها دائما مصلحة مباشرة فى وضع الشعوب و الدول البلقانية الواحدة ضد الأخرى ثم ، عندما تكون قد أضعفت إحداها الأخرى ، إخضاعها لنفوذها [نفوذ الدول العظمى] الإقتصادي و السياسي . و الحال أن الأسر المالكة التافهة الحاكمة فى تلك "المِزَق" من شبه الجزيرة البلقانية قد خدمت و ما تزال تخدم كروافع للدسائس الديبلوماسية الأوروبية . و هذه الآلية برمتها ، القائمة على العنف و الغدر، إنما تشكل عبئا ثقيلا ينيخ بكلكله على الشعوب البلقانية ، و يعرقل نموها الاقتصادى والثقافى....

إن شبه الجزيرة هذه ، التى منحتها الطبيعة منحاً ثرية، تجد نفسها مقسمة بشكل غير معقول إلى مِزَق صغيرة ؛ و الناس و السلع التى تتحرك فيها دائما ما تصطدم بالحواجز الشائكة لحدود الدول ، و هذا التقطيع للأمم و للدول

إلى أشرطة كثيرة إنما يجعل من المستحيل تكوين سوق بلقانية واحدة ، يمكنها أن توفر الأساس لنمو عظيم للصناعة و للثقافة البلقانيتين....

إن المخرج الوحيد من الفوضى القومية و فوضى الدول والارتباك الدموى للحياة البلقانية هو اتحاد لجميع شعوب شبه الجزيرة فى كيان سياسى و إقتصادى واحد ، على أساس الاستقلال القومى للأجزاء المكونة له.... إن الشعوب البلقانية المتحدة وحدها هي التى يمكنها أن تردع ردعا حقيقيا الدعاوى المخزية للقيصرية وللإمبريالية الأوروبية.

و يمكن تحقيق الوحدة السياسية لشبه الجزيرة البلقانية بسبيلين : إمّا من أعلى ، عن طريق توسع دولة بلقانية ، الدولة التى تثبت أنها الأقوى ، على حساب الدول الأضعف -وهذا هو سبيل حروب الإبادة و اضطهاد الأمم الضعيفة ، و هو سبيل يعزز الملكية و النزعة العسكرية ؛ أو من تحت ، من خلال توحيد الشعوب نفسها بنفسها- و هذا هو سبيل الثورة ، السبيل الذى يعنى الإطاحة بالأسر المالكة البلقانية و نشر راية جمهورية فيدرالية بلقانية.

* * * * * * *